سيرة
الأمير عبد القادر الجزائري الحسني

المسماة

نُخبة ما تسرُّ به النواظر، وأبهج ما يُسطَّر في الدفاتر
في بيان تولية ذي الكمال الظاهر، والنسب الطاهر
سعادة الأمير السيد عبد القادر بن محيي الدين في إقليم الجزائر

تأليف
أخيه الأمير أحمد بن محيي الدين الجزائري الحسني

مستخرجة من مخطوط كتاب
نعطير السام في محاسن دمشق الشام للشيخ جمال الدين القاسمي

سيرة
الأمير عبد القادر الجزائري الحسني

المسماة

نُخبة ما تسرُّ به النَّواظر، وأبهج ما يُسطَّر في الدَّفاتر
في بيان تولية ذي الكمال الظَّاهر، والنَّسب الطَّاهر
سعادة الأمير السَّيد عبد القادر بن محيي الدِّين في إقليم الجزائر

تأليف

أخيه الأمير أحمد بن محيي الدين الجزائري الحسني

مستخرجة من مخطوط كتاب

نعطير الشام في محاسن دمشق الشام للشيخ جمال الدين القاسمي

جميع الحقوق محفوظة

لمؤسسة الأمير
عبد القادر الجزائري الوطنية

1442 هـ - 2020 م

إهداء

إلى كل مواطنٍ جزائريٍّ سَهْمٍ

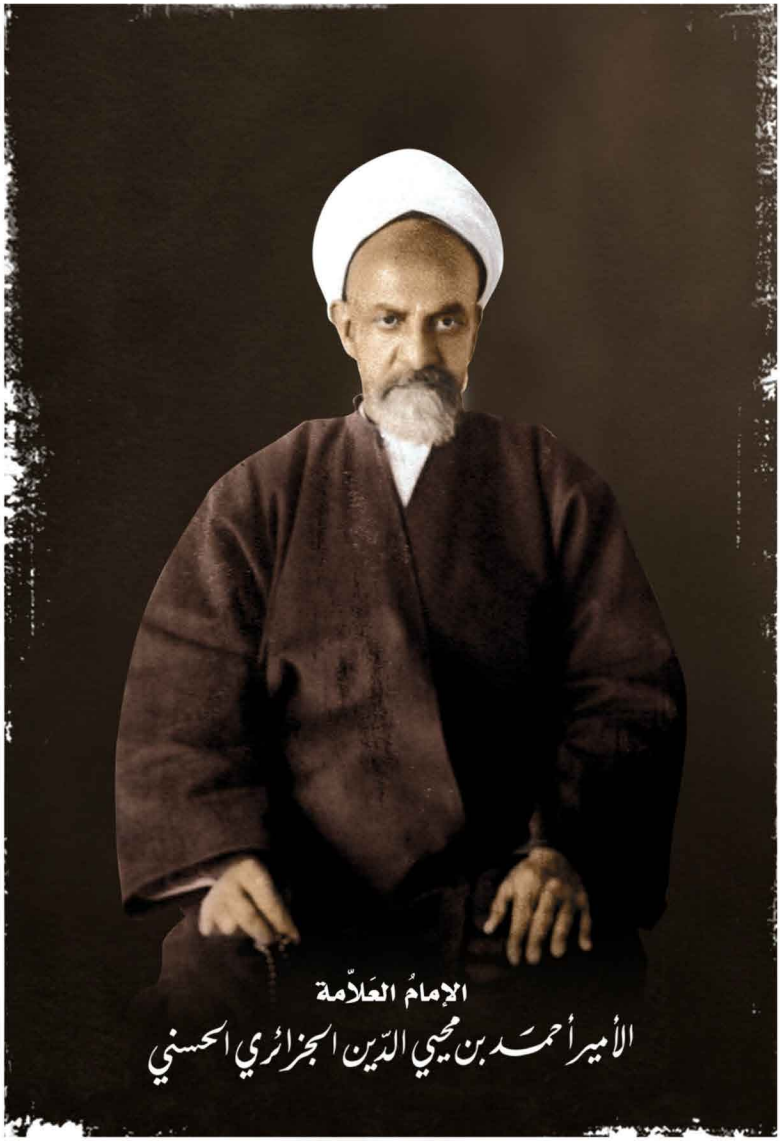

الإمامُ العَلاّمة

الأمير أحمد بن محيي الدّين الجزائري الحسني

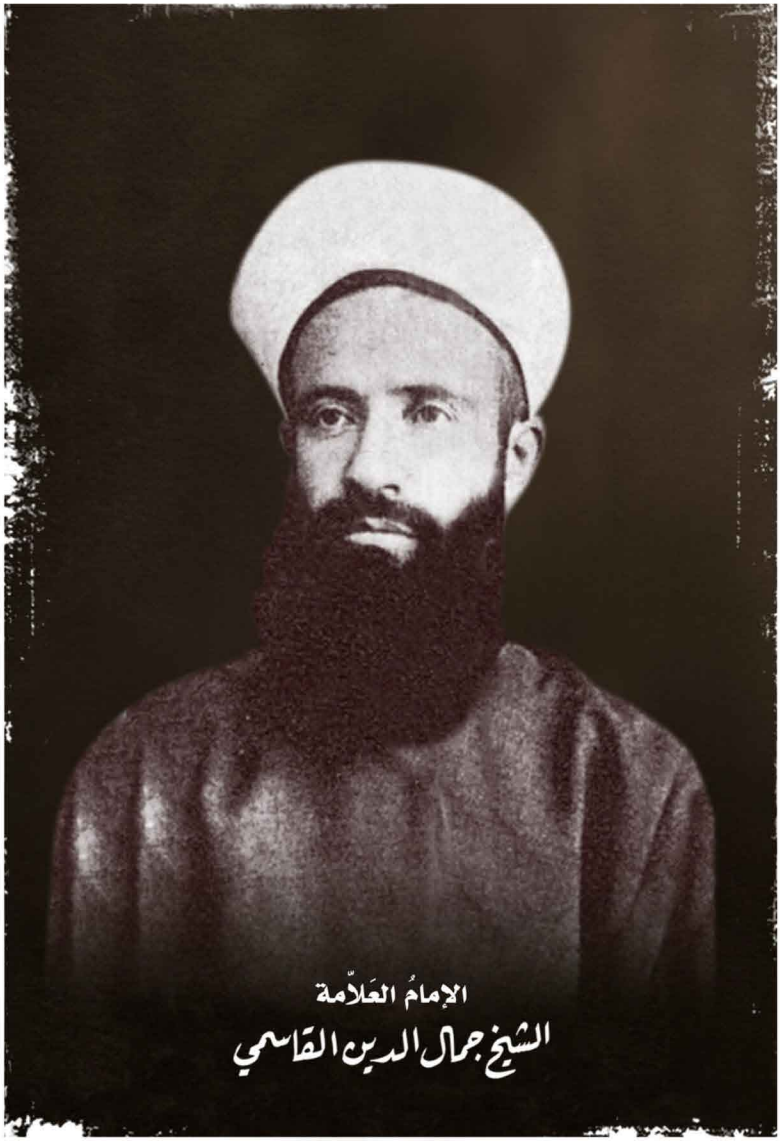
الإمامُ العَلاّمة
الشيخ جمال الدين القاسمي

قبيلة العارف بالله عبد القادر الإدريسي الحسني
الشهير بسيدي قادة

عبد القادر
المعروف بسيدي قادة
(الجد الرابع للأمير)

المختار

محمد المجاهد

المصطفى

أحفاد عرش
السيد علي أبي طالب

أحفاد عرش والد الأمير
سيدي محيي الدين

- **الأمير عبد القادر** — أخو الأمير
- **محمد السعيد** — أخو الأمير
  - **الشهيد: أحمد المجاهد**
  - **الأسير: محمد الصادق**
    - **بدر الدين**
      - **أحمد مختار**
        - **الزهراء**
        - **محمد ظافر**
      - **هدية**
      - **لطفية**
- **أحمد** — أخو الأمير
  1249 - 1320 هـ
- **الحسين** — أخو الأمير
- **المصطفى** — أخو الأمير
- **أبو بكر** — أخو الأمير
  (الشهيد المذبوح)
- **محمد باسل**

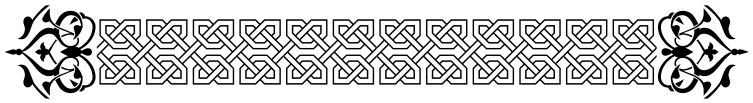

كلمة شكر

تشكر مؤسسة الأمير عبد القادر الوطنيّة كلّ مَنْ أسهم في إحياء هذا الأثر الغالي من آثار الأمير عبد القادر وبعثه إلى النَّور، وتخصُّ منهم:

- حَفَدَة الشيخ القاسمّي الذين أتاحوا لنا فرصة الحصول على قطعة مصوَّرة من أصل كتاب (تعطير المشام).
- الأميرة الزهراء بنت أحمد مختار حفيدة الأمير أحمد مؤلِّف النخبة، إذ أهدت المؤسسة مجموعة من مؤلَّفات جدِّها المكتوبة بخطِّه.
- الأستاذ المحقّق محمد أديب الجادر المعني بشؤون التراث العربيّ والنصوص القديمة، وقد بذلك لنا مصوَّرة عن مخطوطة (تعطير الشام).
- الدكتور فارس علّاوي المتخصّص في الفلسفة الذي قدّم قراءات في نصوص الرجلين.

- الأستاذ أحمد النّجّار -كليّة الدعوة الإسلاميّة-، لنهوضه بتنضيد النص وتصحيحه.
- الحفيد جعفر الحسنيّ الجزائري -كلية الحقوق-، لسعيه الدؤوب في إحياء تراث الأمير، وحرصه على متابعة إخراج النّصّ وبعثه إلى النور.
- الدكتور محمد قاسم مدرِّس النّحو والصرف في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق لتفضُّله بالتدقيق اللّغويّ والمراجعة العلميّة للنّصّ.

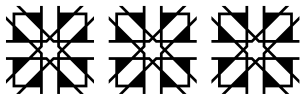

تقديم الكتاب

يسرُّ مؤسسة الأمير عبد القادر الوطنيّة في الجزائر أَنْ تقدِّم للسَّادة القُرَّاء ترجمة الأمير عبد القادر مِن كتاب (نُخبة ما تُسَرُّ به النّواظر، وأبهج ما يُسَطَّر في الدفاتر).

وهي ترجمة مكثَّفة مختصرة عن سيرة الأمير المجاهد عبد القادر بن محيي الدين الجزائريّ، مودعة في موسوعة (تعطير المشامّ في محاسن دمشق الشّام) للشيخ جمال الدين القاسميّ، الذي كان قد طلب إلى الأمير أحمد بن محيي الدين الأخ الأصغر للأمير عبد القادر أَنْ يُحَرِّرَ هذه الترجمة بما عرفه عن كثب عن أخيه الأمير عبد القادر.

وكان أَنْ كتب هذه الترجمة التي نضعها بين أيديكم لعلَّها تُلْقي أضواء جديدة على سيرة هذا الرجل المجاهد الأمير عبد القادر الذي مَلَأَ ذِكْرُهُ الخافقَيْنِ.

وقد نسخنا هذه القطعة من المخطوطة التي تشبه أن تكون موسوعة أو مدوَّنة لتاريخ دمشق الشام ورجالها في

القـرن التاسـع عشـر، وفـق قواعـد الإمـلاء المعتمـد الحـديث، وضبطنا مـا يحتـاج إلى ضـبطٍ بالشـكل لتسـهيل القـراءة، وشرحنـا بعض المفردات التي تحتاج في تقديرنا إلى شرح.

هـذا وقـد يسـّرنا مـا طلبـه السَّـادة المهتمّـون بتـاريخ الجزائر ورجالها من حـبّ الاطـلاع عـلى نـصّ ترجمـة الأمـير أحمـد لأخيه الأمير عبد القادر، وهو نصٌّ عزيزٌ غير متاحٍ.

ننشـر هـذا الأثـر الغـالي الـذي يمثّـل صـفحةً ناصـعةً مـن تـاريخ وطننـا الحبيـب، بغبطـةٍ وسـعادةٍ وطنيـةٍ غـامرةٍ، إذ هـذا النشـر التـاريخي جـزءٌ مـن رسـالة مؤسّسـة الأمـير عبـد القـادر الوطنية.

وكـان قـد سـبقنا إلى نشـر هـذه الترجمـة الـدكتور محمّـد مطيع الحـافظ؛ الـذي اسـتخرجها مـن موسـوعة: (تعطـير المشـام في محاسـن دمشـق الشـام)، لمؤلّفهـا الشـيخ العلّامـة جمـال الـدّين القاسـميّ (1866م/ 1914م) أبـرز علـماء دمشـق في القـرن التاسـع عشـر، وهـو رجـل موسـوعيٌّ، مَذْهَبُـهُ أصـوليٌّ معتـدلٌ، وله جملة من التصانيف المختلفة.

ومؤلَّف (نخبة ما تُسرُّ به النواظر، وأبهج ما يُسَطَّرُ في الدفاتر): هو العلّامة المفتي أحمد بن محيي الدّين بن مصطفى الحسنيّ الجزائريّ (1249-1320هـ/ 1833-1902م) وُلد في القيطنة - معسكر، وتُوُفِّيَ والده قبل أَنْ يتمَّ سنته الأولى، عالمٌ في الفقه والتاريخ، تلقّى علومه على يد ثُلّة من علماء الجزائر، منهم: الشيخ محمد ابن عبد الله الخالدي الجزائريّ، وكان قد حفظ القرآن صبيّاً، وسمع من أخيه الأمير عبد القادر صحيحي البخاري ومسلم.

ثمّ لمّا استقرّ به المقام في دمشق أتمّ تحصيله، وأخذ عن جملة من العلماء منهم:

الشيخ محمّد عبد الله الخاني، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ قاسم حلاَّق، والشيخ يوسف الحسني، والعلاَّمة المجاهد مصطفى بن التّهاميّ إِمام المالكيّة في دمشق.

ولَّما أطلق الإمبراطور نابليون الثالث سراح الأمير عبد القادر من فرنسة إلى بورصة بكفالة السلطان الأشهب عبد المجيد خان، رُحِّلَ منها أيضاً الأمير أحمد مع إخوته إلى الجزائر لتشتيت شملهم.

يقول الأمير أحمد في كتابه النخبة:

(استحسن نابليون -الثالث- أن يفرّق بينه وبين إخوته، فرحّلهم من إمبواز إلى الجزائر، وأسكنهم في مدينة بونة ليجعلهم كالرهائن، ويُبقيَهم فيها قَطْعاً لألسنة أرباب دولته، وتأميناً لهم، وتسكيناً لأفئدتهم كيلا يحصل لهم من الأمير أدنى مناكدةٍ، أو تشويش مع وجود إخوته تحت قبضتهم، وحسماً لما تعطيه أفكارهم من كون الأمير لا يصبر عن العودة إلى وطنه ومحل إمارته وعزه، وأنه بمجرد خروجه للبلاد الإسلامية يرجع إلى الجزائر، وكانت أفكاره هو غير أفكارهم).

ثمّ بعد ذلك طلبوا الرحيل إلى تونس لمجاورة علمائها وفضلائها، فرفضت فرنسة طلبهم خوفاً من التفاف الناس في تونس حولهم لعلمهم وفضلهم وجهادهم وأسبقيتهم في مقارعة الفرنسيين.

وقد رأى الفرنسيون ترحيلهم إلى دمشق، إبعاداً لهم عن شمال إفريقيا، وكان أن التحقوا بأخيهم الأمير عبد القادر سنة 1273هـ.

اشتهر الأمير أحمد بعلمه وفضله في دمشق، فانعقدت له الدروس في جامع العنَّابي في حي باب سريجة الدمشقيّ بين العشاءَيْنِ، وتحلَّق النّاس حوله ينهلون من علمه الجمّ، وله من المؤلفات:

1- (الجنى المستطاب والزّبرجد المذاب) رسالة في السماع، وهي رَدٌّ على من ادّعى أنَّ سماع المعازف يحرِّك القلب لربّ الأرباب.

2- و(شرح على الأبيات التي أوَّلها: فأثبتَ في مستنقع الموت رجله).

3- ورسالة على قول الإمام عليّ ﷺ: «العِلْمُ نُقْطَةٌ كثرها الجاهلون»، عنوانها: (نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة).

4- (نخبة ما تُسَرُّ به النواظر وأبهج ما يُسَطَّرُ في الدفاتر). وهو كتاب موسع في التاريخ انتزع منه الشيخ جمال الدين القاسمي سيرة الأمير عبد القادر الجزائري وأودعها في موسوعته: (تعطير المشام).

مراجع للاستزادة:

- ✓ حيلة البشر 1/ 304-305.
- ✓ منتخبات التواريخ لدمشق 2/ 704-705.
- ✓ أعيان دمشق 414-415.
- ✓ تعطير المشام 65-71.
- ✓ الأعلام الشرقية 2/ 72 و2/ 84 و4/ 177.
- ✓ الأعلام 1/ 255.

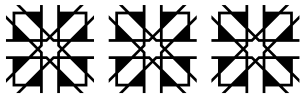

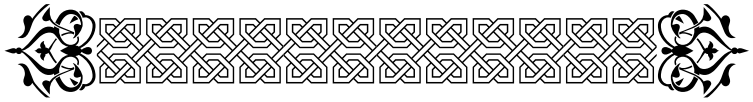

منهج العلامة المفتي المالكي الأمير أحمد فيما كتب

امتاز منهج الأمير أحمد في كتاباته بالنقد الموضوعيّ:

مِنْ ذلك: أَنَّه في عرضه سيرة الأمير عبد القادر انتقد مَوْقِفَهُ مِنْ والي تلمسان، الذي كان سبباً في سُقُوطِها، وكان يَرَى أَنَّ الأَوْلَى عَزْلُهُ لانفضاضِ النَّاس مِنْ حوله.

ومن ذلك:

عدم رضاه عن موقف الأمير عبد القادر من المفاوضات بينه وبين فرنسة في جزئية ترسيم الحدود المؤقّتة، الذي أدى إلى سلسلة حروب كان من نتائجها تعاظم البلاء والعذاب على الناس، والقضاء على الإمارة، وذلك بسبب إصرار الأمير على عدم تنازله عن الفراسخ العشرة التي طلبها الفرنسيون، وأصر على فرسخين أو ثلاثة حتى قال الأمير أحمد في ذلك: «ليته سمح لهم بعشرة فراسخ دَفْعاً لِمَا يمكنُ أَنْ يُلْحِقَه التوحُّشُ الفرنسي المحتلُّ بالبلاد».

ومن مزاياه في كتاباته أَنَّه لم يفقد الجرأة على نَقْدِ الحاكم المستبدّ الطّاغي، وقد هاجم الولاة العثمانيين على الجزائر (الدايات)، لظلمهم الرعية وطغيانهم على الناس، وتمرُّدهم على السلطان العثمانيّ، وهو لا يرى أَنّ ظُلْمَ الوالي منوطٌ بالسلطان، بل أحسن الظّنَّ بالسلطان، وإِن أساءَ مَن انتسب إليه.

وهذا المنهج الذي كان عليه الأمير أحمد من نقد الظالمين من الحكّام يعكس ما عليه السّادة الصّوفيّة في القرن التّاسع عشر من جهادٍ ضدّ ولاة أمر المسلمين الظالمين، وضدّ المحتلّ الأجنبيّ الغازي، لا يُفَرقُ بين مسلم ظالم ومعتدٍ أجنبيّ، فقد قال: إنّ مملكة العدل مع الكفر أدوم من مملكة الظلم مع الإسلام.

ومما امتاز به منهج الأمير أحمد في كتابه: أنه التزم منهج العلماء السابقين الذين كانوا لا يقيمون وزناً للعصبيات العرقية، أو القبلية، فلا يفرقون بين عربي وبربري إلا بالتقوى، والوفاء لقيم الإسلام، فقد كان رحمه الله تعالى يذكر الخارجين على الأمير الذين أيدوا المحتل من قبائل البربر فيقول: البرابرة، كما هو الحال عندما يذكر الخارجين عليه من

قبائل العرب الذين أيدوا المحتل وناصروه أيضاً فيقول: الأعراب، فيميز بين البربر الأمة القائمة، وبين البرابرة العصاة، كما يميز بين العرب الأمة القائمة، وبين الأعراب العصاة، وهذا مصطلح تجده في القرآن الكريم، فالعرب والبربر شعوب وقبائل بفروعهم وألسنتهم انصهروا بتعاليم الإسلام، فكونوا أمة عالمية أنتجت حضارة إنسانية، وما كنا لنلجأ إلى هذه المصطلحات التاريخية التي عفا عليها الزمان إلَّا بعد أن استردَّت هذه الشعوب هُوِيَّتَها العُليا، وهي الهوية الجزائرية بعد تحريرها من الاحتلال، وذَكَرْنا الشرح كيلا يساء النظر فيما يراه القارئ في الكتاب من تسمية الأمم بشعوبها.

وهذا المنهج أيضاً مما تضمنته كتابات الشيخ أحمد في نظرته إلى الأمم الأخرى، لا يقيم وزناً إلا لقيم الحق والعدل التي جاء بها الإسلام، فكان عنده المسلم الظالم، والمعتدي الظالم في الميزان سواء، ولا شك أَنَّ هذه تعاليم القرآن وروحه. وكثيرة هي العِبَرُ التي يستخرجُها المرءُ من النظر إلى كتاب الشيخ العلامة أحمد بن محيي الدين (نخبة ما تُسَرُّ به النواظِر) التّامّ الذي أرّخ من بداية دخول العرب إلى شماليّ إفريقيا إلى

القـــرن التاســـع عشـــر، وسنســـعىٰ في تحقيقـــه ونشـــره في المستقبل إن شاء الله.

نسخ منـه الشـيخ القاسـمي عـن الشـيخ الجزائـري تـاريخ إمارة الأمير عبد القـادر، وسنضـع نـماذج مـن أصـل هـذه الترجمـة بخطّ القاسميّ كي يقفَ القارىء عليها.

كما سنضـعُ نـماذج مِـن مخطوطـة (نُخبـة مـا تُسـرُّ بـه النّـواظر) التّامّ بخطّ مؤلِّفه الشيخ أحمد بن محيي الدّين.

وتسـجل هـذه العلاقـة بـين الشـيخين الأخـلاق العاليـة الرفيعـة التـي كانـت بـين العلـماء في القـرن التاسـع عشـر، إِذ لم يجـد الشـيخ القاسـميُّ الأصـوليُّ بأسـاً في أَنْ يسـأل الشـيخَ الصّـوفيَّ المـالكيَّ الأمـيرَ أحمـدَ بعـض الفتـاوى في الـدين، ويستفتيه في بعـض مـا يعـرض لـه، بـل إِنَّ القاسـمي خـطَّ كتـابَ (المواقـف) للأمـير عبـد القـادر بقلمـه، وهـو مسـتودع الحكمـة وأسرار العرفـان الرّبّـانيّ، ومنهـا الآداب الرفيعـة التـي تحـلى بهـا علـماء الإسـلام السـابقون، نلاحظهـا عنـد الشـيخ أحمـد وهـو يروي كيـف منـع محمـد عـلي باشـا والي مصـر أخـاه الأمـير عبـد القـادر مـن الـدخول إلى بـلاده حـين اسـتنجد بـه مـن فرنسـة،

ففي الكتاب يذكر ذلك بكل حيادٍ ووصفٍ مجرَّدٍ، ولم يتعرض لوالي مصر محمد علي باشا بسوء لرفضه وساطة إخلاء سبيله وقبوله دخول مصر.

وإن كتابنا (نخبة ما تُسرُّ به النواظر) لمؤلفه الأمير أحمد، وكتاب (تحفة الزائر) لمؤلفه الفريق أول، الأمير محمد، نجل الأمير عبد القادر هما المرجعان الوحيدان اللذان أرَّخا لحقبة الأمير، وهما شاهدان عاصرا حقبة الأمير: فنجد الأمير أحمد في كتابه (النخبة) شيخاً يكتب بلغة واقعية نقدية عمومية غير تفصيلية، فمثلاً لم يسمِّ القبائل بأسمائها، لكنه ما ترك موقفاً إلا وذكرها.

وأمَّا الأمير الفريق أول محمد باشا فهو قاضٍ، حقوقيٌّ، ورجلٌ عسكريٌّ، وضعَ كتابَه (التحفة) بلغةٍ موضوعيةٍ تفصيليةٍ تحليليةٍ مقارَنةٍ بأقوالِ المستشرقين، مع عدم انتقاده لأبيه في بعض الأزمات السياسية لما يخص علاقة الأدب بين الابن وأبيه.

فجاء الكتابان شهادةً على الواقع، ودراسةً موضوعيةً، ونقديةً تحليليةً للأحداثِ وأخبار ما جرى،

وقد سبق تأليفُ كتابِ (نخبة ما تسر به النواظر) للأمير أحمد كتابَ (تحفة الزائر) بسنواتٍ، كما سبق تأليف التحفة تأليفَ موسوعة (تعطير المشام).

وتأملُ المؤسسةُ أَنْ تكون قد قدّمت في نشر هذا الكُتَيِّب اللّطيف الحجم زاداً معرفيّاً تاريخيّاً يمثّل شهادة حيَّةً موثَّقة تُنير جانباً مِن صفحات تاريخ الجزائر.

رئيس المؤسسة المؤقت
العبد القوي بالله
جعفر الحسني الجزائري

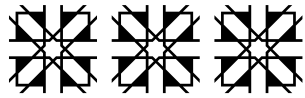

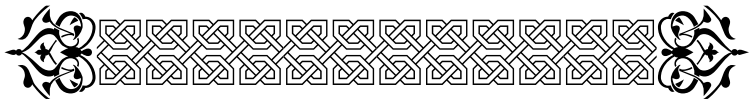

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ
جمال الدين القاسمي

الأمير السيد عبد القادر بن السيد محيي الدين بن السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد المختار الحسني الجزائري، قدس الله سرّه العزيز.

فرع دوحة الشرف الزاهر، وطراز عصابة الحسب الباهر، أمير المجاهدين في الأقطار المغربية، والقائم بنصرة الدين بالهمم العلية، المشكورة في سبيل الله مساعيه الحسنة، والمتفقة على كمال وصفه الآراء والألسنة، العريق في الرئاسة والسيادة، والحقيق بارتداء الفخر والسعادة، الجامع بين العلوم الظاهرة والباطنة، والمتضلع من أسرار المعارف الكامنة، محيي معالم الجود والكرم، مجدد محاسن الأخلاق والشيم، وارث رتب المجد كابراً عن كابر، سلالة المفاخر

التي طاب أولها وزكا الآخر، محط رحال الفضلاء وموئل القصاد والنبلاء، من طار صيته في سائر الممالك، ومشت حصاة فضله في أقاصي العمران والمسالك، ومحاسنه شهد بفضلها الخاص والعام، ومآثره ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام، قدس الله روحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه[1] وصبوحه[2].

لا ريب أن سيرة هذا الأمير تحتاج إلى تأليف كبير، وقد بلغني أن أحد أنجاله[3] الكرام ألّف في ذلك كتاباً حافلاً بديع الانتظام، بيد أنه لم تشرق من كنزه مطالعه، ولا أسفرت من خزائنه طلائعه.

وقد يسر الله لنا[4] صحبة أخي الأمير، المنوه به العالم العامل التقي، والفاضل النحرير النقي، بهجة الشرفاء وتاج

---

(1) الغبوق: شراب العشي.

(2) الصبوح: شراب الغداة.

(3) هو الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، (1256-1331هـ) وكتابه: (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر)، مطبوع في جزأين.

(4) هذا كلام الشيخ جمال الدين القاسمي.

اللطفاء، ذي المجد السني السيد أحمد الحسني حفظه الله تعالى فلم تبرح تضمُّني وإياه مجالس حسنة، فيما يقرب إلى الآن من خمس عشرة سنة.

وكنا كثيراً ما نعطر مجامعنا بأريج سيرة أخيه الأمير المشار إليه، ونتروح بعجائب تلك الوقائع التي مرت عليه.

ولما جمعت هذا التاريخ[1] أشرت على جنابه بجمع ترجمة لسعادة أخيه الأمير، وما شاهده من سيرته في توليته: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر، الآية:14]، فانتدب حرس المولى علاه، وصنف في ذلك كتاباً رشيقاً مبناه، رقيقاً معناه، سماه (نخبة ما تُسَرُّ به النواظر، وأبهج ما يُسَطَّرُ في الدفاتر في بيان تولية ذي الكمال الظاهر والنسب الطاهر سعادة الأمير السيد عبد القادر بن محيي الدين في إقليم الجزائر)، وسبب تسليمه فيه مما ثبت لديه من الأخبار الصحيحة التي حصلها، والحوادث التي شاهدها وأبصرها.

(1) هو كتاب: (تعطير المشام في مآثر دمشق والشام)، مخطوط في الخزانة القاسمية.

وقد قلت في تقريظه:

ذي نخبـــة سرت فـــؤاد النـــاظرِ
أبهـــى مـــآثر سُـــطّرت بـــدفاترِ
مـن سـيرة المـولى الأمـير المجتبـى
العـــارف الحســـنيِّ عبـــد القـــادرِ
مـــن أدهشَـــتْ آثـــاره أهـــل النهـــى
وغـدت بجيـد الـدهر عقـد جـواهرِ
يـا طالمـا الفضـلاء وَدَّتْ لـو تـرى
آثـــاره جُمِعـــت بِسِـــفرٍ بـــاهرِ
كـــيما تُحـــلّي فكرهـــا أخبـــارُه
أيـــام دولتـــه بقطـــرِ جزائـــرِ
وإذا النفـــوس تعطَّشـــت لمؤَلَّـــفٍ
في ذلـــك النّبـــأ العظـــيم الغـــابرِ
أمضـــى اليـــراع لـــذا أخـــوه
مجـداً وفضـلاً فـوق كـل منـاظرِ
الحـبر أحمـد بهجـة العلـماء مَـنْ
ورث المعـــارفَ كـــابراً عـــن كـــابرِ
فأبـــان منتخبـــاً عظـــيماً وقعـــه
لاحـت بـه آيـاتُ صـدقٍ ظـاهرِ

لا زال جامعُـــه يفيـــد لطائفـــاً
تُمـــلى وتُـــتلى في رؤوس منـــابرِ
مـا فـاح طيـب مـآثر النـبلاء مِـنْ
روض المعـــارف بـــالكمال الـــوافرِ

وقـدَّم زيـد فضـله في طليعـة الكتـاب تقلّـب الأحـوال على إقليم الجزائـر بالإجمـال، ممـا لا يسـتغني عنـه المـتعطش لتلـك الآثار التي هي من عجائب ما أبدعته يد الأقدار.

ولنذكر شـذرة مـن عقـدها الفريـد تمهيـداً لتوليـة الأمـير، وتتميماً لفائدة بنائه الحميد.

استيلاء العثمانيين على الجزائر وتونس

قـــال حفظـــه الله تعـــالى: لمـــا امتـــدت دولـــة إســـبانيا للاستيلاء عـلى إقلـيم الأنـدلس أرسـلت للدولـة العليـة العثمانيـة كـبراء ذلـك الإقلـيم يسـتنجدونهم، فأرسـلت لهـم نجـدة عظيمـة إلا أنه أبطأ قـدومها، فلـما توسـطت تلـك النجـدة البحـر سـمعت بـأن إسـبانيا تغلبـت عـلى جميـع ذلـك الإقلـيم، فرجعـت تلـك النجـدة إلى الجزائـر فملكتهـا وسـلكت تـونس ومـن وقتئـذ

صارتا وجميع إقليميهما تحت الدولة العثمانية وقد كانت تلاشت دولة بني زيّان الملقبين ببني عبد الواد من تلمسان، كما تلاشت الدولة الحفصية مِنْ تونس، وذلك في أواخر قرن التسعمئة ولما ملك العثمانيون الجزائر حولوا الهيئة الملكية من تلمسان إلى الجزائر لوقوعها على ساحل البحر فمعظم تمدنها بذلك زيادة على ما حصل لها من التمدن بسبب توطن مهاجري الأندلس بها وكانت قديمة قرية مخشوشنة تسمى بقرية بني مَزْغَنّة.

وبعد تمهيد العثمانيين لها وجعلها قاعدة ذلك الإقليم بدت بها الصنائع الغريبة والأشياء المزخرفة العجيبة، والأبنية المشيدة والأسرة المنضدة والحصون المنيعة، والقلاع الوثيقة، وقد جبي إليها خراج ذلك الإقليم مدة ثلاثمئة وسبع وثلاثين سنة، واستقر الملك بها في المدة المذكورة، وكانت في المئة الأولى وبعدها بقليل تحت إدارة الدولة العثمانية بحيث إن واليها يتولىَّ من طرفها ويعزل بأمرها، وكانت سيرتهم في ذلك الإقليم وقتئذ محمودة لعدلهم في الرعية وحسن سياستهم، ثم بعد ذلك استقل أولئك الأتراك الذين توالدوا

بـإقليم الجزائـر، ولم يبـق بيـنهم وبـين الدولـة العثمانيـة اتصـال إلا بالخطبـة باسـم السـلطان العـثماني، وضربَ السِّـكّةِ[1] باسـمه، وصاروا يولون الوالي مدة، ثم إذا شاؤوا قتلوه، وولّوا غيره.

ومن غريب ما اتفـق لهـم أنهـم في يـوم واحـد ولَّـوا سـبعة ولاة، ينصـبون واحـداً، ثـم يعزلونـه ويقتلونـه، ويولـون غـيره، وهكذا واحداً بعـد واحـد، ولم يـتم الأمـر إلا للسـابع، ثـم طغـت تلك الأمـراء، وتجـبرت آخـرَ أمرهـا عـلى الـرَّعيـة، وأكثـرتْ مِـنَ الظلـم والعـدوان وسـفك الـدماء بغـير حـق، وعثـت في الإقلـيم وفسـدت، فأهلكـت الحـرث والنسـل، ولا سـيما قبيـل انقطـاع دولتهـا، فقـد اشـتد ظلمهـا غايـة الاشـتداد حتـى بلـغ النهايـة، وذلـك علامـة عـلى الخـراب سريعـاً كـما هـي عـادة الله تعـالى في خلقـه، يقـال: إن الملـك يـدوم مـع الكفـر ولا يـدوم مـع الظلـم، قـال تعـالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [سـورة الإسراء، الآيـة: 16] ثـم انـتقم الله تعـالى مـن أولئـك الظَّلمـة، وشـتت شـملهم، وأصـبح

(1) السكة: النقد.

مُلْكهم هباءً منثوراً وقد كانت لها الرِّفْعَةُ[1] والسطوة العظيمة في ذلك الإقليم براً وبحراً، حتى إن مراكبها كانت كلما صادفت مركباً من المراكب الإفرنجية في البحر، أو رأته من بعيد تتوجه إليه ثم تطلق عليه صواعقها النارية فتفرقه أو تغنمه، وقد عظمت سطوتها في البحر على جميع الدول الأوروبية، وكانت مراكبها مصحوبة بالظفر والنصر أينما توجهت بحيث إنها لا تكسر لها راية في البحر أصلاً، وبذلك عظم طغيانها، وربما غزت مراكبها بعض الجزر البحرية، فتغنم ما فيها، وتحملها مع أهاليها أسرى إلى الجزائر، وقد تقصد مراكبها بعض المحلات المهجورة من البلاد الإفرنجية، فتخرج منها ليلاً إلى بعض ضيعهم القريبة من البحر، فتفعل مع أهلها ما تقدم وترجع، وفي يوم دخولها تجعل لها زينة عظيمة بالبلد، وتصلب رئيس الضيعة أو المركب الذي غنمته، وتجعله بصدر السفينة عند الدخول ليراه الناس مشنوقاً، ثم لما أكثرت من ذلك الفعل، واشتد ذلك على الإفرنج، وعظم لديهم، إذ كانت أسرت منهم خلقاً كثيراً.

---

(1) أي: مدينة الجزائر.

بسبب ذلك جاءت الدولة الإنكليزية إلى الجزائر قاصدة الانتقام، وأظهرت صورة السِلْم، ونصبت علامتها، وأشهرتها مكراً وخديعة فأُذن لها في الدخول إلى المرسى، فدخل ثلاثة مراكب من مراكبها الحربية، وكان ذلك النهار يوم عيد، والناس على غاية ما يوجد من السرور، ثم بعثت مكتوباً لوالي الجزائر عمر باشا، وانتظرت جوابه بسرعة، وكانت جعلت له أجلاً لردِّ الجواب، ثم ما لبثت تلك المراكب إلَّا برهة يسيرة بعد وصول المكتوب إليه، وبمجرد قراءة المكتوب، وأمر الوالي بردِّ جوابه، وإذا بالصواعق النارية أرسلت متتابعة بعضها إثر بعض بلا فترة، متعللاً أصحابها بعدم السرعة في ردِّ الجواب، ولدخولها تحت المرسى لم يتمكن لقلاع البلد تفريقها، إذ كان المرمى يتجاوزها، فحصل بسبب ذلك للأهالي وللحكومة اضطراب عظيم وتشويش بليغ، ولاسيما أنه قد حصل ذلك على غفلة وعدم أهبة حتى اضطرهم الحال إلى أن صاروا ينزلون المدافع من بعض الحصون بالحبال لأجل أن يتمكنوا من ضرب تلك المراكب

وإصابتها، وصارت الأهالي تضرب ما ظهر من نواتئ تلك المراكب وعساكرها بالبواريد، فلم يغن إطلاق الرصاص من الأهالي عنهم شيئاً، وقد خَرَّبَتْ تلك المراكب مع قلتها جملةً من البيوت المرتفعة وبعض شواهق الحصون، ثم وقع الصلح بينهما على أنهم يُسَلِّمُون إليها جميع ما في الجزائر وبجاية من الأسرى، وإن كانت من غير دولتها، ثم خرجت تلك المراكب من المرسى؛ إذ لا قدرة لها على أكثر ما فعلت، ولا غرض لها أزيد من ذلك إذ لا يمكنها هي ولا غيرها أخذ الجزائر وقتها، لأن قلوب الأهالي كانت لم تتفق على بغض حكومتها حيث إن الظلم كان خفيفاً يمكن للرعية تحمله، ولا يمكن لدولة من الدول أن تستولي على إقليم من الأقاليم مع اجتماع كلمة أهله، ولو بلغت ما بلغت من القوة إلا نادراً.

هجوم إسبانيا على الجزائر

وقبل هذه الواقعة كانت جاءت دولة إسبانيا إلى الجزائر، وأنزلت عساكرها إلى البر، فخرجت إليها عساكر الجزائر، واجتمعت الأهالي على جيوشها فانكسرت، وقُطِعَ

دابرهـا، وغـنم المسـلمون جميـع ذخائرهـا التـي أخرجوهـا إلى البر، ورجعت مراكبهم منكسرة الشوكة مخذولة.

الخلاف مع فرنسة

ثـم في سـنة 1245هـ وقـع الخـلاف بـين والي الجزائـر حسـين باشـا، وبـين قنصـل دولـة فرنسـا بسـبب يهـودي كـان داخلاً تحـت حمايتهـا، فـتكلم القنصـل مـع الـوالي في شـأنه بكـلام ألجأه الغضب منـه إلى أن ضربـه بمروحـة كانـت في يـده بمجلـس حكومتـه، فـامتلأت صـدور دولتـه مـن تلـك الإهانـة، وراسـلت السلطان محمـود خـان بـذلك / 488/ الفعـل لمـا لـه مـن السـيادة على حكومة الجزائر فبعـث مكتوبـاً لـذلك الباشـا يُقَـبح فيـه فِعْلَـهُ الشـنيعَ وصُـنْعَهُ الفظيـعَ، ويـأمره بـأن يسـتجلب ذلـك القنصـل، ويفعـل معـه مـن الإحسـان مـا ينجـبر بـه كَسـر قلـوب دولتـه بسـبب تلـك الإهانـة الواقعـة عـلى رؤوس الأشـهاد، فلـم يمتثـل لأمـره ونبـذ كلامـه، فغضـب عليـه غايـة الغضـب زيـادة عـلى غضـبه السـابق عـلى تلـك الحكومـة، وقـال للدولـة الفرنسـية: إن أولئـك الأشرار قـوم عصـاة مسـتقلُّون بأنفسـهم فشـأنكم وشأنهم، وليته لم يقل.

وسبب غضبه عليهم قبل ذلك؛ هو أن الدول[1] الأوروبية اتفقت جميعاً على أنها تجري القوانين السياسية التي[2] تحكم بها، واشترطت على السلطان محمود أن يُمَشي ذلك في جميع رعيته، ويأمر جميع الأقاليم التي له عليها السيادة أن يجروها ويحكموا بها، وأن يتخذوا الهيئة العسكرية، فبعث إلى الدولة المصرية وإلى الدولة التونسية وإلى الدولة الجزائرية، فامتنعت الدولة الجزائرية الامتناع التام، وأنكرته كل الإنكار، ولاسيما حين رأت ذلك اللباس المُجَسِّدَ للعورة، وتلك الهيئة التي لم تكن مألوفة عند الإسلام.

إن مأمور السلطان لما دخل الجزائر أمر بدق الموسيقا[3] العسكرية في تلك المراكب التي جاءت معه، فبعث إليهم والي الجزائر وقال لهم: إما أن تتركوا ذلك الدق ما دمتم في إيالتي (دولتي)، وإلا أمرت بتغريقكم. فلما رجع

(1) في الأصل: (الدولة).

(2) في الأصل: لا توجد كلمة (التي).

(3) في الأصل: (المويسيقا).

ذلك المأمور وأخبر السلطان بما شاهده منه ومن أهل مجلسه من الإنكار وشدة الامتناع غضب عليهم غاية الغضب، ولولا أنه كان مشغولاً بقتال الينكجرية وقرب عهده بمحاربة الموسكوف لبعث جيشاً لمحاربة حكومة الجزائر، وانتقم من ذلك الوالي وحزبه.

فرنسا تطلب إلى محمد علي والي مصر الوساطة مع الجزائر

ثم إن الدولة الفرنساوية لما كَبُرَتْ عليها تلك الإهانة، وعظم في عينها محاربة الجزائر لما كانت عليه من الصولة وقوة القلب والشجاعة، ذكرت لمحمد علي باشا والي الديار المصرية ما فَعَلَهُ والي الجزائر مع قنصل دولتها، والتمست منه أن يكتب مكتوباً لها بالمصالحة بينهما وأنه... يُوَطئُ نفسه بما فعله مع سفيرها، وأن يقبل التنظيمات التي بعث السلطان بها إليه.

فكتب إليه محمد علي باشا بأن ما فعلته من ذلك الفعل تأباه السياسة وكمال العقل واستدرك الأمر قبل تفاقمه

عليك، ومن المؤكد به عليك على وجه النصيحة أن تستجلب ذلك الشخص، وتعتذر إليه بكل اعتذار، وتجبر خاطره لتنجبر قلوب دولته، وإلا فلتعلمن بناء ما فعلته بعد حين. فأجابه لشدة فظاظته بما لا يستحسن ذكره عند ذوي / 489/ العقول من الكلام الوحشي، وذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فإن الحق تعالى إذا أراد أمراً سلب ذوي العقول عقولهم ولذا يقول بعضهم[1]:

أراد أمـــــــراً ســـــــلب ذوي
أراد أمـــــــراً ســـــــلب ذوي
إذا أراد الله أمـــــــراً بـــــــامرئ
وكـــان ذا عقـــلٍ وســـمعٍ وبصـــر
أصـــمَّ أذنيـــه وأعمـــى قلبـــه
وســـلَّ منـــه عقلَـــه ســـلَّ الشـــعرْ
حتـــى إذا أنفـــذ فيـــه حكمَـــه
رد عليـــــه عقلَـــــه ليعتـــــبرْ

(1) الأبيات بلا نسبة في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 16/ 131.

ولما أيست الدولة الفرنساوية من رجوعه عن طغيانه لقلة عقله وشدة صلابته وعظم حمقه وسوء تدبيره وقلة معرفته لإقبال نحسه، جمعت جيشاً يبلغ عدده ثمانين ألفاً، وهو وقتئذ غاية مقدورها بحيث إنها لم تترك في جميع مملكتها إلا شيئاً يسيراً من عساكر مما لا بد له منه للمحافظة، وقصدت الجزائر، فأطلقت صواعقها النارية عليها من البحر، فقابلتها الجزائرية بمثلها أو أعظم إلى أن صار النهار ليلاً من كثرة الضرب وتتابع الصواعق من الجهتين، ولما لم تستفد الدولة الفرنسية من ذلك الضرب شيئاً، كرت راجعة إلى وراء، وتغيبت مدة أيام في البحر، ولسوء التدبير والتساهل في الأمور وعظم الغفلة وعدم اتخاذ الحزم، لم تبعث الدولة الجزائرية مركباً مِنْ مراكبها ليكشف لها خبر تلك الأساطيل والجيوش، وتقف على قصتها كي تتخذ ما يلزمها من الاحتياطات اللازمة، وتجعل حرساً في جميع الجهات، وفي جميع المظان التي يخشى خروج العَدُوِّ منها، بل غفلت كل الغفلة اعتماداً على ما أظهرته لها من شدة الضرب والشجاعة وقوة القلب، وظنت أن تلك الدولة انكسرت، وأنها رجعت

إلى بلادها، وسبب ذلك التساهل هو أن الدولة الجزائرية لم يبق لمراكبها حَزْمٌ بعد وفاة رئيس مراكبها وزعيمها المقدام أمير البحر الرئيس حميد الزواوي عليه رحمة الله.

وسبب موته هو أن المخابرة كانت مقطوعة بين دولة أمريكا وحكومة الجزائر، فجاء من الدولة المذكورة أربعة عشر مركباً من القِطَعِ الكبيرة التي تمشي بالهواء ونشر الشوارع[1] والقلاع، وذلك قبيل اختراع البوابير[2] وانتشارها بين الدول الأوربية، وقابلت الجزائر وجالت أمامها يميناً وشمالاً على البعد منها ترهيباً لأهلها. فلما أخبر بها والي الجزائر أمر الرئيس المذكور بالخروج إليها فقال له: إن الوقت غير مساعد للخروج ولا للضرب، فألزمه الخروج فخرج في جملة من المراكب، واشتطت النيران الحربية بين الفريقين فكانت الدائرة على المذكور، فاستشهد على مراكبه[3]، فغنمتها أمريكا.

---

(1) أصله شراع السفينة، وجمعه أشرعة، وشرع.

(2) البوابير: القوارب الصغيرة، أو مراكب ملكية خاصة، وهي كلمة أعجمية ليس لها أصل في المعاجم العربية.

(3) ربما كان المقصود استشهد على مراكبه، والواو زائدة.

وبعد هذه النكبة لتلك الدولة وقع ما وقع بين فرنسا وبينها ثم إن الجيوش الفرنسية لما توسطت البحر اجتمع رئيسها مع كبرائه، وفكروا في أمرهم عند قصدهم معاودة ضرب الجزائر والانتقام من واليها وقالوا: لا يكون لنا تدبير مصيب للغرض ونهاية في المطلوب من كوننا نستغفلهم، ثم ننزل[1] عساكرنا إلى البر، ونجعل لها استحكامات، ثم نحاربهم فيه، وتكون مراكبنا بإزائنا، إذ محاربتنا لهم من جهة البحر لا نستفيد منها سوى الحرمان ومزيد الخسران، لما للبلاد من التحصن وقوة التمكن، وإنما يأتونها من بعض الجهات البرية، فرجعوا ليلاً وقصدوا[2] محلاً مهجوراً يسمى بسيدي فرج بينه وبين الجزائر أربع ساعات من الجهة الغربية، وأنزلوا عساكرهم فيه واتخذوا لها ما يلزمها من الاستحكامات، فما أصبح النهار إلا وكان ذلك المحل مملوءاً بالعساكر الفرنسيين[3]، فإنهم أنزلوا ستين ألفاً، وأبقوا في

(1) في الأصل: (نزل).

(2) في الأصل: (مقصدوا).

(3) في الأصل: (فرنسوية).

المراكب منها ما أبقوا، فخرجت عليهم العساكر الجزائرية، وكانت قليلة جداً؛ إذ كان جميع ما عندهم من العساكر في ذلك الإقليم يجمعه ثمانية عشر ألفاً من الأتراك وأولادهم، وكانت مفرقة ذلك العدد على جميع مدن الإقليم، وتحارب بهم مع عساكرها، فجمعت ما تيسر عليها جمعه، وخرجت فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت الجيوش الجزائرية الأتراك[1]، وتقدمت الفرنسية بعض التقدم، وزاد الأتراكَ خُذْلاناً بُغْضُ أصحاب الإقليم لهم بما أبدوه من الظلم الفاحش للرعية، ولرؤساء الأقاليم في آخر أمرهم كما قدمناه، وبسبب ذلك نفرت منهم القلوب جميعاً مع ما كان يرسله رئيس الجيوش الفرنساوية من المخادعات، وتارة يلقيه في الطرقات أثناء المحاربة ليصل إليهم، من أنه إنما أتى بأمر من قبل السلطان محمود ليأخذ حسين باشا إليه، ويرد إليهم واليهم السابق، فغرَّهم كل الغرور بهذه المخادعة وثبطهم بها، وفرق كلمتهم بسببها، فلم يجتهدوا في المحاربة كل الاجتهاد، وصار بعضهم يتقدم للمحاربة مجتهداً ناوياً للجهاد والدفع

(1) المقصود الحامية العثمانية التركية.

عن الوطن والبلاد، وبعضهم يقول: لا مقتضى لهذه المحاربة حيث إن باشا ذاهب وآخر قادم.

ثم وقع الحرب بين الفريقين ثانياً، واشتد غاية الاشتداد وجاءتهم جموع قبائل، وطلبت من الوالي إعانتهم بالأسلحة والبارود، فلم يرض أن يعينهم، وقال لأحمد باي والي المدينة لما طلب منه ذلك إليهم: قل لهم أن يضربوهم بالحجارة ويهجمون عليهم بالعصي، فإني لا أقوي هؤلاء البرابرة بالأسلحة والبارود، إذ ذلك خلاف الحزم. ثم اقتتلوا بعد ذلك، فانهزمت الجيوش التركية انهزاماً فشلت به كل الفشل، وتقدمت الجيوش الفرنسية من البلد، فعند ذلك تيقن والي الجزائر وحزبه اضمحلال أمرهم، وأصبحوا آيسين من النجاح، وتقطعت بهم الأسباب، فما وسع الوالي إلا أن بعث مفتي الجزائر في جملة من أعيانها إلى رئيس الأساطيل البحرية ليؤمنه ويؤمن الأهالي من السبي والنهب، فذهبوا إليه وكلموه في ذلك، فأجابهم بأن الأمر كان قبل نزول العسكر إلى البر مفوضاً إليّ، وأما الآن فهو بيد رئيس الجيوش البرية، فرجعوا من البحر، وذهبوا إليه، وطلبوا منه الأمن

والأمـان للـوالي المـذكور وللأهـالي، وطلبـوا منـه أن يتعهـد إلـيهم بـأن الدولـة الفرنسـية تقـرهم عـلى عوائـدهم الإسـلامية، وتبقـي لهـم شـعائر ديـنهم، وألَّا تتعـرض لهـم في أمـر ديـانتهم بشـيء، فأجـابهم بـالقبول إلى جميـع مـا طلبـوه منـه، وكتـب لهـم صـكاً[1] وختمه عـلى التعهـد بـما اشـترطوه، فرجعـوا إلى الـوالي، وأخـبروه بـما وقـع مـن اشـتراط الاطمئنـان العمـومي، فحينئـذ فتحـت الأبـواب للعسـاكر الفرنسـية[2] فـدخلت، وكـان ذلـك اليـوم أنحس الأيام على ذلك الوالي وحزبه.

واسـتلمت الجيـوش الفرنسـية[3] القـلاع والحصـون، واستولت عـلى البلـد ومـا بهـا مـن الـذخائر والنقـود التـي كانـت تجبى إليها من مدة ثلاثمئة وست وثلاثين سنة.

وكـان مـن الغرائـب أن الدولـة التركيـة لم تثبـت في النـزال إلا مدة عشرين يومـاً، وكـان المظنـون بـل مـن الأمـور المحققـة أن الجزائر لا تؤخـذ مـنهم إلا بعـد دوام الحـرب شـهوراً متعـددة، لمـا

(1) في الأصل: (صطاً) وأثبتها في المتن: (صكاً) لأن هذا هو المشهور.

(2) في الأصل: (فرنسوية).

(3) في الأصل: (فرنسوية).

هـو مشـهور لـدى العمـوم والخصـوص مـن شـجاعتهم وقـوة قلـوبهم التـي اكتسـبوها مـن خاصـية ذلـك الإقلـيم، وهـذا هـو الـذي أوهـم ذلـك الـوالي وأعـماه حتـى فعـل مـا فعـل ولم يسـمع كلام السـلطان محمـود ولا نصـيحة محمـد عـلي باشـا، وأظهـر مـا أظهـر مـن الفظاظـة وشـدة الغلظـة، وأوهمـت غلظتـه الدولـة الفرنسـية[1] وظنتـه أنـه عـلى شيء مـع مـا كـان يُسـمع عـن تلـك الحكومة من الشجاعة وقوة الحزم.

وبسـبب ذلـك تأنَّـت كـل التـأني وصـبرت كـل الصـبر، ولم تبـادر بـالحرب خشـية أن تعجـز عـن مطلوبهـا، ولا يـتم لهـا مرغوبهـا، حتـى رفعـت أمرهـا إلى السـلطان محمـود مـع علمهـا بـأن تلـك الحكومـة مسـتقلة بنفسـها بـلا شـك، ولا ريـب، وطغيـانُ أتـراك الجزائـر وظلمهـم لـرعيتهم هـو الـذي أوجـب خذلانهم وخسرانهم واضمحلال أمرهم، وقد قيل[2]:

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) التبيـان لأبي الفـتح البسـتي في ديوانـه ص81، تحقيـق دريـة الخطيـب ولطفي الصـقال، طبـع مجمـع اللغـة العربيـة بدمشـق 1989م، وروايـة البيت الثاني فيه:

عليـك بالعـدل إن وُلّيـتَ مملكـة

واحذر من الظلـم فيهـا غايـة الحـذر

فالمُلك يبقـى مـع عـدلِ اللئـيم ولا

يبقى مـع الجـور في بَـدْوٍ ولا حَضـر

وكانـت نفوسـهم تحـدثهم بـأن لا أحـد مـن الـدول يقـدر علـيهم، وأن الشـجاعة التـي كانـت تظهـر مـنهم إنـما هـي مـن نفوسـهم، ولم يعلمـوا أن تلـك الشـجاعة إنـما جـاءتهم مـن أهـل الإقلـيم والتفـاتهم إليـه لمـا كـانوا عليـه أولاً مـن العـدل واتبـاع الشـريعة المطهـرة، وإظهـار السياسـة التامـة، فلـما رفضـوا ذلـك رفضـتهم قلـوب الأهـالي، فلـم يبـد مـن شـجاعتهم شيءٌ لا كـليٌّ ولا جزئـي، ولا انتصـروا يومـاً واحـداً في محـاربتهم في الـبر عنـد خـروج الجيـوش الفرنسـية[1] إلـيهم ومحـاربتهم لهـم فيـه، وأخذت منهم الجزائـر في برهـة يسـيرة مـع شـدة شـكيمتهم وقـوة ثباتهم، وادعائهم أن لا أحد من جميع الدول يقدر عليهم.

فالعـدل يبقيـه أنـى احتـل مـن بلـد

والجـور يفنيـه في بـدو وفي حضـر

(1) في الأصل: (فرنسوية).

ثم إن الدولة الفرنسية لما استولت على الجزائر بقيت ستة أشهر بها، ثم وجهت بعض المراكب إلى وهران وبعضها إلى بونة فملكتها، ولما أرسلت المراكب على وهران شرعت الأهالي في نهب الأشياء التي تخص الدولة التركية، ووالي وهران يشاهد ذلك ويراه، وهم يقتسمون الدواب والذخائر ولا يقدر هو، ولا أحد من حزبه يتكلم في ذلك، وقد أنزل الحق تعالى الأتراك منزلة لم يكونوا يعهدونها، ولا كانت تخطر ببال أحد من الناس؛ إذ كان لهم من الهيبة والعظمة والإجلال ما لا يعبر عنه لسان، والموجب لذلك كثرة الظلم الذي تردوا به حتى صار شعاراً لهم، ولذلك حل بهم الويل والنكال، فسبحان من أبى العظمة والكبرياء لغير وجهه الكريم.

ثم إن الدولة الفرنسية لما استولت على غالب أساكل[1] إقليم الجزائر كوهران، ومستغانم وبونة وبجاية وغيرها قنعت بها ولم يخطر لها خاطر في تملك بقية المدن البرية

(1) المقصود بالأساكل: مرافئ السفن، واحدتها إسكِلَّةٌ.

أصلاً لعظم جهلها بالإقليم وأهله، حتى أنها رغَّبَت حاكم تونس في أنها تُسلِّم إليه وهرانَ مع كونها أعظم أساكل ذلك الإقليم بعد أسكلة الجزائر، لتكون الدولة التونسية والوقاية لها من شرور أهالي ذلك الإقليم، لكون الإسلام يجمعهم حيث إنها في ذلك الوقت لم تكن لها نية التملك بعد ذلك، فبعثت الدولة التونسية خير الدين باشا إلى وهران، فلما وصلها بعث لبعض الرؤساء من وجوهها ولكبراء الدوائر وتكلم معهم في ذلك فأبوا، ولا سيما حين رأوه متهيئاً بالهيئة الإفرنجية في اللباس والمأكل، وكانوا يكرهون تلك الهيئة وينكرونها كل الإنكار وبسببها أعرضوا كل الإعراض الكلي وصار عندهم كالمسخرة، وظنوا أن مجيئه خديعة لهم من الفرنسيين[1]، وبقي مدة ينتظرهم فلما لم ير منهم أدنى توجه ولا إقبال رجع من حيث جاء.

ثم إن المدن البرية بقيت فوضى في ذلك الإقليم بعد استقرار الدولة الفرنسية[2] في أساكل الإقليم واشتعلت

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) في الأصل: (فرنسوية).

النيران الحربية فيه من جميع الجهات بالقتل والنهب والضرب والخراب والسلب وانقطاع السبل بأخذ الأموال وقتل الرجال ودام الحال على هذا المنوال أربع ساعات بحيث لا آمر يأمر بالمعروف ولا ناهياً ينهى عن المنكر، ولو وجد لا يسمع لقوله ولا يلتفت لنهيه. وشنت الأعراب الغارات على بعضهم بعضاً، وحصروا المدن التي بالإقليم من جميع الجهات، وكذلك برابر الإقليم أكثرت من التعدي على من يجاورها فكثر الهرج والمرج وأصبح الناس في ضنك وحرج، اشتد الحصار وعظم الضيق والشدة والبوار حتى بلغت القلوب الحناجر، فلما رأى ذلك ذووا الرأي السديد والعقل الكامل الحميد أجمعوا على أن يدبروا أمراً يصلح به شأنهم وتجتمع به كلمتهم ويلتئم شملهم، ثم اتفقوا على أن يسلموا الإقليم لسلطان مراكش السلطان عبد الرحمن بن هشام، فذهب جمع منهم إليه، وطلبوا منه، ذلك فأجابهم لما طلبوه، وأعطاهم جيشاً فدخل مدينة تلمسان ومعسكر وغيرهما من بقية المدن، فأمروا ونهوا في الإقليم مدة شهور، ثم صدر الأمر إليهم من ملكهم أن ارجعوا فرجعوا بعد أن لبثوا مطمئنين

مدة سبعة أشهر وما يقرب منها، ثم خرجوا من الإقليم بلا سبب ظاهر، وعند خروجهم أخذوا جميع ما وجدوه من الأشياء التي كانت تخص الدولة التركية من الخيول وغيرها مما علموه ويخف عليهم حمله، ولم يتركوا إلا المدافع التي كانت بالأسوار، فإنهم لم يتعرضوا لها لثقلها ولئلا يظهر لأهل الإقليم تخليهم عنه فيحصل تشويش، وربما تقع فتنة بسبب ذلك. والذي يظهر أن خروجهم كان بواسطة تكلم الدولة الفرنسية مع ملكهم بأننا بصدد الاستيلاء على جميع ذلك الإقليم، وها نحن قد استولينا على غالب أساكله، وكيف بك بعثت جيشك إليه، وبذلك صدر أمره برجوع خيوله التي كانت في الإقليم فرجعت ولا سبب غير هذا يظهر، والله أعلم. وصفة رجوع ذلك الجيش هو أن رئيسه أمر بحضور جميع ما في الإقليم من الخيول، وأشاع أنهم غازون على أعراب أُخر بمحل آخر، وهكذا إلى أن خرجوا من الإقليم جميعه بلا أدنى مكدر، ودخلوا في إقليمهم، ولولا احتيالهم على الخروج بهذه الكيفية لحصل لهم غاية التكدير لو استشك برجوعهم أهل الإقليم وتخليهم.

رغبة الأهالي في تولية الأمير عبد القادر

ثم لما رأى أصحاب الإقليم ذلك الفعل فكروا في أمرهم لعلهم يقعون على رجل منهم يصلح به شأنهم، وتجتمع به كلمتهم من أهل الإقليم، فلم يجدوا بيتاً[1] مشهورةً لديهم أهله، مسموعة الكلمة لدى الخاص والعام في جميع ذلك الإقليم، جامعة للغنى والعلم وتمام الفضل وكمال الفروسية من قديم الزمان إلا بيت السيد عبد القادر بن المختار الحسني، ولا شخصاً معظماً عند أهل الحضر والبوادي يتفق جميع أصحاب الإقليم على كماله وفضله، وهو أهل للرئاسة وشروط الإمامة متوفرة فيه، وله أعوان وأنصار على نصر المظلوم وكف الظالم عن ظلمه سوى السيد محيي الدين بن السيد مصطفى من أولاد السيد المذكور وخلاصة ذريته، فجاؤوه وطلبوا منه أن يتولى أمرهم ويبايعوه على السمع والطاعة على أن يقيم فيهم الحدود الشرعية، ويكف الأشرار عن شرهم، وأن يزجر المتغلبين ويردعهم على

(1) أي قبيلة.

عتوهم وغيّهم، فامتنع من ذلك كل الامتناع، فألحوا عليه المرة بعد المرة، وكلما طلبوه يتعلل بأشياء ككبر السن وغيره لما يعلمه من أن الإمارة شأنها عظيم وخطبها جسيم، وتحملها يسلب الراحة عن القلب، ويجلب له المصائب والهموم، ويوجب تشتيت البال والنكد والغموم وهو في غنى عن رئاسة التولية والشغل بها لوافر غناه وسماع كلمته في إقليمه وعظمته في قلوب أهله على ما هو بصدده من التفاته لمولاه ونظره في عقباه، وكان سنه وقتئذ يقرب من الستين سنة، ولذلك لم يرض التولية لنفسه بل ولا رضي بها لولد من أولاده، وكلما سألوه ذلك له أو لولد من أولاده ينكر ذلك عليهم ويأباه، وقد تكرر الطلب منهم له مدة ثلاث سنين، فلم يجب أحداً منهم.

فلما كثر الهرج والمرج وازداد الضيق على المساكين والضعفاء وعظم الحرج، وتكرر الإلحاح عليه المرة بعد المرة وصار أمر الإقليم إلى التلاشي والاضمحلال، وانقلب إلى أسوأ حال، إذ قد انسدت الطرقات، وتوالت الحسرات، ولا معين للضعيف، ولا ناصر إلا الحق جل جلاله، أجابهم

لمطلوبهم ووعدهم بأنه سيفعل، إذ رأى الأمر قد تعين عليه، فصمم على الإذن في الإمارة لولده المعظم الكامل السيد الأمير عبد القادر لِمَا رأى فيه من النجدة وتمام الشجاعة والفروسية وقوة القلب والتأني في الأمور والتؤدة في المصالح والثبات في الخطوب العظام، وكمال العقل وزيادة المروءة والفضل.

استشهاد ابن أخي الأمير السيد أحمد في غزوة وهران

وقد كان جريه في الغزوات التي كان يحضر معه فيها ولاسيما في الغزوة التي مات فيها السيد أحمد المجاهد ابن السيد محمد السعيد أخي الأمير، فقد أبدى الأمير فيها من الشجاعة والثبات وقوة القلب ما شاع وذاع لدى الكُمَّل والرعاع، وذلك أن السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر جمع جموعاً من الأهالي، وذهب بها غازياً وهران ومعه أولاده الثلاثة السيد محمد السعيد والسيد عبد القادر صاحب الترجمة والسيد المصطفى وابن ابنه الشهيد المذكور، وفي أثناء

الطريق مرض السيد محيي الدين، ورجع فذهب أولاده المذكورون بذلك الجمع، وغارت بعض الخيول على من خرج من البلد فأصابت خيلاً وبغالاً وبقراً وقتلت من صادفته ثم قربت تلك الجموع من البلد، فأغلقت أبوابها، ووقعت الحرب مناوشة بينهم على الأسوار، وأطلقت عليهم بعض المدافع من البلد، فتزحزحوا عنها يسيراً، ثم أصابت رصاصة الشهيد المذكور، فوقع على الأرض من فرسه، فرآه والده، فتقدم نحوه، ووقف على رأسه، فنطق بالشهادة، ثم فارق الدنيا، وبقي والده واقفاً عنده متحيراً، لا يدري ماذا يفعل حيث لا قدرة له على حمله لنحافة جسمه، ثم لحقه الأمير، ونزل من فرسه وحمله مع جلالة الخطب وشدته، ثم لحقهما جملة من الفرسان الحشم، ووقفوا في وجه العدو حتى حملوه على بغل وقد تعجب الحاضرون[1] من اقتحام الأمير ونزوله عن ظهر فرسه من شدة الأمر، ولم يتركه للأعداء تمثل به، وكانت المدافع تطلق عليهم نيرانها وخيول العدو وعسكرهم ومدافعهم متوجهة إليهم من البلد، ثم وقعت

(1) هنا تميزت قدرة الأمير البدنية، وشجاعته.

المحاربة، فكرَّت خيول المجاهدين راجعة إلى وراء، فلحقهم خيول من العدو، فقتل المجاهدون جميع الخيول التي لحقتهم، ولم تدم محاصرتهم للبلد إلا مدة قليلة لعدم وجود السيد محيي الدين معهم.

ولما رأى أصحاب ذلك الغزو ما رأوه فيه من الشجاعة والثبات حيث إنه لا يمكن أن ينزل واحد عن ظهر فرسه في مثل ذلك الموطن إلا القليل عظم في قلوبهم وطلبوه من والده بالخصوص، وأن يأذن له في الإمارة والتقدم، فركن لمطلوبهم إلا أنه لم ينشرح لذلك كل الانشراح لصعوبة الأمر وجلالة الخطب.

ثم إنه لما غزوا وهران آخر غزوة، وكان أصيب فيها من الخيول سبعون فرساً لجموعه، إذ كان قبل تولية ولده الأمير المترجم يجيش الجيوش، ويجمع الجموع، ويغزو بها وهران، ويحاصرها الأيام والليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى محله بالقيطنة خارج مدينة معسكر حضر لديه جمع من رؤساء الإقليم وكبرائه ممن لهم فيه الحل والربط وقالوا له: قد استحسنا أن تبعث معنا السيد المذكور لنذهب به إلى مدينة

معسكر، ونجمع من كل بيت منها ريالاً للمجاهدين الذين ماتت خيولهم ليشتروا بدلها، فأجابهم إلى ذلك ولم يخطر بباله أنهم يبايعون ولده في ذلك النهار، وإنما كان مراده والله أعلم أن يبعث لرؤساء الإقليم، فتجتمع كلها كعادتها في المهمات، ثم يقدم إليهم ولده فيبايعوه.

مبايعة الأمير

غير أن أولئك الرؤساء لما فهموا من سعادته الركون لما طلبوه منه أخذوا الأمير، وتوجهوا به إلى معسكر في موكب عظيم، فلما قربوا منها نزلوا في محل خارجها، واستحسنوا أن يعقدوا له البيعة في ذلك المحل، إذ كان المحفل مشتملاً على أغلب علماء الإقليم وذوي الهيئات والكمال منهم وأهل الحل والربط من مشايخ العرب ووجوه مدينة معسكر ويبايعونه بيعة خاصة، ففعلوا، وبايعه جميع من كان بذلك المحفل خارج البلد وكتبوا له البيعة، وقرأ كل واحد منهم ما كتبه على ذلك الجمع. وكان ذلك بأوائل رجب سنة 1248هـ، وبعثوا للبلد، فأحضروا الطبول، ثم اجتمعت عليه جموع من

تلك الجهات، وأدخل البلد والطبول تدق أمامه، وهم على غاية من السرور، فلما دخل المدينة أطلقت المدافع من أسوارها إعلاناً بتوليته وفرحاً بما وقع من اجتماع كلمة الموحدين[1].

ثم بعد أن ثبتت البيعة لسيادة الأمير بما فعله العلماء المتقدم ذكرهم، كتب والده الجليل السيد محيي الدين لرؤساء الأقاليم جميعاً وصناديده وشيوخه بالحضور لمبايعة الأمير ممن لم يحضر ما تقدم، فأجابه كلهم إلا السيد محمد بن سيدي عربي، فإنه امتنع أولاً، وكتب مكتوباً له يعطي فحواه؛ أنه لم ينشرح لما اتفق عليه أهل الإقليم، ثم إنه تروّى أياماً، ثم وفد في جملة من وفد من رؤساء الجهات، وذلك شهر رمضان، وبايعوه على الجهاد والسمع والطاعة، وعلى أن يقيم فيهم الحدود الشرعية، ويسير فيهم سيرة عمرية، وقد حضر منذ المشهد الثاني جم غفير وجمع كثير، وبعد بيعتهم أطلقت المدافع من أسوار المدينة من الطابيات.

(1) هم المسلمون المؤمنون بوحدانية الله عزّ وجل.

وكتبت له البيعة الكبرى داخل البلد، وبها تمت له الإمارة على جميع الإقليم، وقد ذكر أخوه السيد أحمد، حرس المولى جانبه، في كتابه نصوص المبايعات التي كتبها أجلاء فضلاء ذلك القطر، طويتُ نقلها هنا رَوْماً للاختصار.

فأصبح الأمير وقد تمت البيعة بذلك المجمع العظيم والاتفاق العميم، وثبتت له الإمارة والسلطنة على ذلك الإقليم بجميعه بلا معارض، وخضعت له جميع المدن البرية في جميع ذلك الإقليم بلا أدنى كلفة سوى مدينة تلمسان، فإنه عارضه من كان فيها من الأتراك وأولادهم ولم يخضعوا له، فحاربهم واستعان عليهم بمن فيها من العرب الحضريين، ففتحها وخضع له من فيها من الأتراك.

وبخضوع تلمسان له وتملكه لها تمت له الإمارة، وثبتت له المملكة والسلطنة على الإقليم، إذ هي أشهر مدنه، وقد كانت داراً للملك من قديم الزمان، وكانت له صولة ودولة أيام ملوكها بني زيان، وقد خُطب باسم الأمير على جميع منابر ذلك الإقليم ومدنه البرية، وهي مليانة والمدية والبليدة والقليعة ومعسكر ومازونة وتاهرت وبسكرة

والأغـواط والـزاب وندرومـة وغيرهـا، ولم يبـق مـن مـدن ذلـك الإقلـيم الأوسـط سـوى الأسـاكل والمـراسي التـي دخلتهـا فرنسـا[1] قبـل توليتـه وهـي القالـة وبونـه وجلجـل وبجايـة وشرشـار[2] ومسـتغانم ووهـران والجزائـر وسـوى قسـنطينة[3] فـإن الحـاج أحمـد بـاي كـان اسـتقل فيهـا بمـن كـان فيهـا مـن الأتـراك، وبقيـت تحتـه مـع جهاتهـا الشـرقية، كـما كانـت قبـل استيلاء الفرنسـيين[4] عـلى الجزائـر، فإنـه كـان والياً عليهـا وعـلى إيالتهـا إلا أن الأمـر لم يـتم لـه إلا مـدة يسـيرة وأخـذتها[5] منـه الدولة المذكورة، ثم استولى الأمير على بقية إيالتها الغربية.

ثـم إن الأمـير بعـد اسـتقرار الإمـارة إليـه جعـل حـدوداً بينـه وبـين الفرنسـية مـن جهـة الأسـاكل والمـراسي التـي تحـت مملكتها وجعلت قنصـلاً عنـده مـن قبلهـا أسـكنته مدينـة معسـكر

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) يقصد بها شرشال.

(3) في الأصل: (قسمطينة).

(4) في الأصل: (فرنسوية).

(5) في الأصل: (أخذها).

اسمه (دوماص) بدلاً عن قنصلها الأول الذي قتل نفسه وكتب بخطه: لا تتهموا أحداً بقتلي، فأنا الذي فعلت بنفسي ما فعلت.

وجعل الأمير وكيلاً عندهم أسكنه مدينة وهران، وكان بواسطته يشتري له جميع ما يلزمه من الأسلحة.

تنظيم العساكر وشراء الأسلحة

ثم شرع الأمير في كتب العساكر النظامية، وجلب لها من البلاد الأوربية المُعَلِّمين التعليمات الحربية والتنظيمات العسكرية اقتداء بمحمد علي باشا والي الديار المصرية، فإنه لما جاء الأمير إلى الحج مع والده رأى الباشا المذكور مُجِدّاً في كتب العساكر وترتيبها على النسق المعروف، فاقتدى به فيما فعل، فلم يلبث هو بعد توليته إلا سنة واحدة وأشهراً.

وشرع في كتبها متبعاً نسق المذكور وطريقته، ولم يكن إلا مدة يسيرة حتى أصبحت دولته كأنها دولة قديمة ثابتة القوائم مؤسسة الأركان والدعائم.

إنشاء مصنع للأسلحة

وفي سنة 1253هـ اتخذ فابركيا لعمل السلاح والبواريد، وجلب آلتها وصناعتها ومعلميها من الدولة الفرنسية أيام مهادنته معها بدراهم بليغة على مدة سنة كاملة، وجعل تحت أولئك المعلمين صناعاً وفَعَلَةً من أهل الإقليم هددهم بالقتل إن لم يتقنوا الصنعة قبل تمام السنة، ثم ما مضت إلا مدة يسيرة حتى أتقنوا الصنعة، ومهروا فيها على أحسن ما ينبغي، لما سمعوه منه من التهديد بالقتل وشديد الإهانة، ثم رد معلميها الإفرنجيين إلى بلادهم قبل تمام السنة، حيث لا لزوم في بقائهم، وبعد ذلك شرع في اتخاذ فابريكا[1] أخرى لعمل المدافع الكبيرة إلا أنها لم تتم.

فأصبح الإقليم بعد توليته مجتمع الكلمة مبتهجاً، وارتاح الأهالي مما كانوا فيه من العذاب الأليم بسبب القتل والنهب والهرج والمرج وتشويش الأفكار والتعدي على الضعفاء والمساكين، وأمنت السبل، وانكسرت شوكة

(1) من صناعة أو إنتاج.

المتغلبين من جبابرة الإقليم، وخمدت نار الحرب التي كانت بين الأهالي، واستراح الناس أيام دولته راحة عظيمة، وكانت أيامه أيام خصب ورخاء وسعة لسيرته سيرة المتقدمين من الملوك العدل، فإنه في أيام دولته لم يأخذ من الرعية إلا الزكاة المشروعة، وبذلك عمت الراحة الأهالي جميعاً.

مكاتبة ملك مراكش

وبعد توطيد البلاد إليه واجتماع قلوب الأهالي جميعاً عليه كاتب ملك مراكش السلطان عبد الرحمن، وكانت بينهما مواصلات عظيمة ومكاتبات تقتضي كمال المحبة والمودة وتمام المواصلة، وقد بعث الأمير إليه أول مرة أخاه العلامة السيد محمد السعيد، ومعه شيخه العلامة السيد مصطفى ابن عبد الحليم المستغانمي في جملة من أكابر الإقليم مستصحباً معه بعض التحف الإفرنجية لتتميم ربط المواصلة بينهما والمودة، وأرسل إليه ثانياً عمه العلامة الأفخم السيد علي بن أبي طالب في وفد من رؤساء الإقليم ووجوهه، فأكرمت الدولة المراكشية نُزُلَهم، وأحسنت إليهم كل الإحسان، ثم

بعد ذلك بمدة أرسل إليه شيخَ الجماعة ومقدمها في وقته العلامة المتفنن السيد ابن عبدالله الملقب بسقاط قاضي مدينة معسكر ومعه جمع من الوجوه، وبسبب تلك المواصلات كان يشتري له وكلاؤه الذين هم بتلك الدولة ما يلزم من الكسوة والآلات والسروج والبارود وجميع ما تحتاجه العسكرية من الأشياء، واتصلت تلك المودة بينهما، ثم انقطعت بما ستطلع عليه بعد.

الاحتفال بالمولد الشريف وتجارب على القتال

وقد كان الأمير أيام ولايته يحتفل احتفالاً عظيماً للمولد النبوي، ويخرج جميع عسكره من البلد إلى أرض فيحاء متسعة، ويجعلون بها شبه محاربة، فيقف عسكره في ذلك المتسع، ويجعل شبه قلعة مربعة الأركان من العسكر، ويكون في وسط تلك القلعة ما يحتاجه من الذخائر العسكرية، وتجعل في كل ركن من أركان تلك القلعة مدفعاً أو مدفعية، ثم يحيط بتلك القلعة خيول من خيالته النظامية أو من الأهالي.

ثم تخرج من القلعة شرذمة لتدفع تلك الخيول، وتزيحها عن محالها، وتبعد بمقدار عشر دقائق عن القلعة، وتطلق البارود على تلك الجموع المتراكمة المتقابلة لها، ثم تهجم عليها تلك الخيول هجمة واحدة، وتطلق النيران البارودية، فإذا تكاثرت عليها رجعت تلك الشرذمة منهزمة ومتولية إلى وراء، وتطلق البارود على الخيول إلى أن تدخل تلك القلعة فتلتئم معها، وتصير كأنها لم تخرج منها ولا انفصلت عنها.

ثم تطلق تلك القلعة النيران المتتابعة على الخيول، وتضربها بمدفع أو مدفعين من ذلك الركن، فترجع الخيول عنها.

ثم تخرج طائفة أخرى مِنْ جهة غير تلك الجهة، وتفعل مثل الأولى، ثم تهجم الخيول التي بمقابلتها بقوتها، وتفعل كما تقدم، ثم ترجع متولية القهقرى طالبة للتحصن بتلك القلعة مع عدم فترة الضرب عنها، فإذا وصلت إلى القلعة التحمت معها، وصارت بحيث يراها الرائي كأنها لم تخرج منها أصلاً ولم تبارحها.

ثم تشتعل النيران المتتابعة، فترجع الخيول، وتطلق عليها الصواعق المدفعية من ذلك الركن، وهكذا تفعل من جهاتها الأربع، وتكون تلك الحرب بمقدار ساعتين أو ما يقرب منهما، فيرى من يشاهد ذلك أفعالاً تسره، ويبتهج منها خاطره، وكذلك كان يفعل في جميع الأعياد بعد الصلاة.

مدة تولية الأمير

وكانت مدة تولية الأمير سبعة عشر عاماً، منها اثنتا عشرة كانت على غاية ما يكون من الراحة والسرور والبسط، وإن حصل فيها بعض المحاربة فليست بمكدرة كل التكدير ولا مشوشة للأهالي، إذ كانت تشتعل فيها نار الحرب ثم تنطفئ سريعاً لعدم توجه الفرنسية فيها لمسلك بقية الإقليم، وأما بقية تلك الأعوام فكانت على غاية ما يكون من الشدة والعذاب الأليم، إذ الكروب كانت فيها متوالية والحروب متتابعة، فقد وقعت فيها بين الأمير وبينهم حروب متصلة متعددة لها أيام وليال مشهورة، ولنذكر أول حرب منها لشهرتها عند الخاص والعام، وإن كانت هذه المحاربة

وقعت قبل أن تعترف الدولة الفرنسية للأمير بالإمارة على الإقليم، وتسطر أمره في دفاترها، وإن كانت جعلت وكيلاً عنده من قبلها، فإنما ذلك لأجل أن تطلع بسببه على أشياء وتهتدي به إلى بعض المصالح تظهر لها نتيجتها فيما بعد، لا لكونه معدوداً عندها وقتئذ من الملوك ذوي المقاطعات، إذ ما ثبتت له الإمارة عندها ولا اعترفت له بها إلا بعد هذه الحرب بمدة كما ستطلع عليه وبعثِه إليه الحاج المولود بن عراش سفيراً إلى باريز عاصمة ملكهم، وهذه الحرب هي التي وقعت بزبوج مولى إسماعيل، وهي أول حرب وقعت بينهما.

فبينما الأمير على غاية ما يكون من الاطمئنان والراحة، وإذا بمكتوب ورد عليه من بعض مسلمي الجزائر يتضمن أن الجنرال تيريزي (تيريزل) متوجه لقتالك، فكن على أهبة وحذر، ولا سبب إذ ذاك يقتضي الحرب أو يفضي إليها، غير أن المكتوب تأخر وصوله إليه، ولذلك لم يتأهب حسبما ينبغي، وكان بين مصدق ومكذب لعدم السبب، فتأهب بعض التأهب، وجمع أمره بعض الجمع، وكان دوماص قنصل دولة فرنسة عنده بمعسكر ووكيله هو

بـوهران، ولم يبـديا لـه شـيئاً ممـا يقتضـي قطـع المواصـلة أو يوجب تكـديراً أو حربـاً، ثـم إن سـعادته لم يلبـث إلا مـدة يسـيرة بعد ذلك، وإذا بمخـبر ورد عليـه مـن رئـيس العسـكر المحـافظين على الحدود بـأن العسـاكر الفرنسـية انفصـلت عـن مدينـة وهـران متوجهة للقتال حسبما يظهر من سيرها، فكن على أهبة.

جمـع الأمـير عسـكره الـذي هـو بمدينـة معسـكر، وبعـث للعـرب التـي كانـت حواليهـا مـن الحشـم وغـيرهم بالحضـور والتأهـب للجهـاد والـذب عـن الـوطن والـبلاد، والمحامـاة عـن الحـريم والأولاد، وبعـث وقتئـذ سـاعياً لعسـكره الـذي هـو بمدينة تلمسان تحـت قيـادة خليفتـه السـيد محمـد البوحميـدي بـأن يبعث به سريعـاً مـن غـير تـراخٍ ولا تـوانٍ، ويحملونـه عـلى الإبـل والبغـال، ويـأتون بهـم كـأنهم طـائرون، وخـرج بمـن معـه مـن الجند وبـما تجمـع مـن الأهـالي ومـن العـرب متوجهـاً نحـو مدينـة وهـران، فـالتقى الجمعـان عـلى غـير ميعـاد، ونشـبت النـيران الحربيـة، وحمـي الـوطيس، واخـتلط الجمعـان، وبطـل ضرب البـارود، ولم يبـق إلا بالسـيوف والنصـال التـي تجعـل عـلى رأس البواريـد شـبه النصـال، فـمات جميـع مـن خـرج بـه الأمـير مـن

عسكره المنظم المشاة، وأطلقت الجيوش الفرنسية[1] الصواعق النيرانية من مدافعها على الخيول التي بقيت مع الأمير، وعلى جموع المجاهدين، فتشتت وانهزمت لتتابع ضرب المدافع عليها، ولم يبق من الجموع إلا القليل، وقد خلت الطريق ولم يبق معارض، وتقدمت الجيوش الفرنسية ومشت مقدار ساعتين أو ما يقرب منها، ثم نزلتْ وخيّمتْ، وتقدمها وسيرها إنما كان لإظهار القوة، وإلا فإنها تكبدت خسائر جمّة.

ولما خيّمت نزل الأمير بمن بقي معه من الخيول بالقرب منها في شرذمة قليلة جداً بحيث لا تقدر على أدنى معارضة، ولا تملك دفاعاً ولا مقاومة يسيرة، ثم في الساعة الثالثة من تلك الليلة وردت على الأمير خيول كثيرة من قبيلة فليتة، فحصل لجماعة الأمير بعض الاطمئنان بها، وما عسى تفيد الخيول ولو بلغت ما بلغت في الكثرة مع العساكر النظامية المقوَّاة بالمدافع، ثم قبيل الصبح وصلت العساكر من تلمسان التي كان بعث إليها بالحضور، فَتَعَضَّدَتْ قوته بها،

(1) في الأصل: (فرنسوية).

واشتد ساعده بوصولها، وبوقتها ألقى الله الرعب في قلوب الجيوش الفرنسية، فكرّت راجعة إلى وراء على طريقها التي جاءت منه، مع أنها لو جدَّت بالأمس كل الجد لكانت وصلت إلى مدينة معسكر ودخلتها بلا معارض وتحصنت فيها، إذ لا مدافع لها قبل مجيء ذلك العسكر، والأهالي لا تقدر على دفاع العسكر النظامي وترجيعه.

ثم لما رأى الناس رجوعها وتوليها القهقرى مع حضور العساكر التلمسانية تقوت قلوب الأهالي، ورجع من كان خرّ بالأمس إلا القليل ثم انتشبت النيران الحربية بين الفريقين، وقد اجتمعت جموع بليغة من الأهالي، واحتاطت بهم فحمي حينئذ الوطيس واكفهرَّ وجه النهار، وأطلقت النيران بالأشجار الملتفة بذلك المحل والحشيش أمام الجيوش الفرنسية[1] وعن اليمين والشمال، وأكثرت من الصياح واللغط والضجيج مع تتابع الصواعق من مدافع الجهتين، فوهنت العساكر الفرنسية، وانكسرت شوكتها، وفشلت كل الفشل، وحصل فيها الضعف والخلل ولاسيما حيث أخذ

(1) في الأصل: (فرنسوية).

رئيس الطبجية بعض المدافع، وجعلها أمامهم على محل مرتفع، ثم أرسل عليهم نيرانها المتتابعة، وكان حاذقاً ماهراً في كيفية إرسالها عليهم، فدخلهم الفشل الكلي، وتركوا جميع ذخائرهم وبعض المدافع ولم يبقوا بأيديهم إلا ما لا بد منه، وتوجهوا قاصدين البحر طلباً للتحصن به والتخلص من الهلاك، إذ لم يبق من جيشهم في ذلك النهار الهائل إلا طائفة تجمعت على من بقي من الرؤساء، واتخذت شبه قلعة مرتفعة الأركان، ومشت نحو البحر، إذ رأت فيه بعض المراكب من مراكبها كانت تجول فيه.

وكانت [العساكر الفرنسية] قد أيست من النجاة، فإنها رفعت علامة التسليم وأشهرتها مرتين، ولم يتحصل من ذلك على طائل لعدم فترة البارود من تلك الجموع المتشكلة من عشائر العرب وأخلاطها، حيث إنها لا تفهم علامة التسليم أو إنها فهمت وقصدت إعدامهم بالكلية، فحينئذ تحققوا بالهلاك، وتيقنوا أن لا نجاة.

وأما عسكر الأمير فظن أن تلك العلامة مجرد خديعة ومكر، ثم إن ما بقي من الجند الفرنسوي لما وصل إلى البحر

قربت من تلك المراكب وصادفتهم على سبيل الاتفاق، ووجدتهم على أسوأ حال، فركبوها ونجوا، ولولاها لاستؤصلوا جميعاً وقُطِعَ دَابِرُهم، وفي ذلك النهار يقول عم الأمير من قصيدة:

قلبنا لهم ظهر المِجنِّ عشيةً
صَبَرْنا بها أَلْفاً ونِصْفَاً مِنَ الألفِ

وهذا القدر هو الذي تركوه ملقى على وجه الأرض في مَقْتَلَه اليوم الثاني ما عدا من مات منهم في مّقْتَلَةِ اليوم الأول وواراه، ولم يظهر له أثر، خشية أن تحرقه الأعراب، وذلك العدد يحكى أنه يقرب من التسعمئة ما عدا المجاريح.

وقد مات في اليوم الثاني عدة من رؤساء عسكر الأمير وكثير من مشايخ العرب، وفي اليوم الأول استشهد جميع عسكر الأمير الذي خرج به من مدينة معسكر ومعهم اثنا عشر ضابطاً كبيراً من الذين يشار إليهم، ويتأسف على فراقهم التأسف الكلي.

وقد أُسر من الجند الفرنسي جمع غفير، إذ كان الأمير

وعد كل من جاء بواحد من عسكرهم حياً أو برأس ميت فإنه يأخذ عشر ريالات، فاقتحمت الأعراب لذلك شدائد المنية، وخاضت بحار الموت بهمة قوية طلباً لحصول الموعود به، وجاءت بعدد كثير، فوفى الأمير لجميعهم بما وعد وأنجز، مع ضعف خزينته وقلة ما بيده.

وكان لهذه الواقعة موقع عظيم في قلوب الإفرنج وغيرهم حتى إن الأعراب اتخذتها تاريخاً لأولادهم، ومن وقتها اعتبرت الدولة الفرنسية الأمير كل الاعتبار، وعظم في عينها، وعرفت قوة عزمه وشدة حزمه، وتحققت شوكته ونفوذ أمره، وقد كانت جاءته على غفلة لتنال منه مطلوبها على غرة، فرجع سهمها عليها.

وبعد هذه الواقعة التي ملأ السهل صرعاها استعظمت فرنسا الأمير، وعرفت حقه، وصارت لا تبادره بالحرب ولا تنشب بينهما إلا بعد المخابرة ونقض العهد، على أن كثيراً من المرات كان يأتي نقض المهادنة والصلح من قبله.

وقد استحقر هذا القدر من الموتى في تلك المعركة المتقدمة من لم يعرف حق القتلى الآدميين ولم يحضر لمواقع

النزال، مع أن غاية ما في الحروب الوقتية العظيمة هذا القدر أو ما يقرب منه، ثم تنهزم الجهة المغلوبة، وكون اليوم الواحد يموت فيه عشرة آلاف مثلاً أو ما يقرب منها غير مقبول عند أولي التجربة العارفين بالمواقع في جميع هذه الحروب الواقعة الآن، وإن ذكر فإنما هو على درجة المبالغة، نعم في أيام متعددة يصح ما ذكر وتصدقه العقول الكاملة، وسبب ذلك كون حروبنا الوقتية نارية، وهي لا يقتل فيها أكثر من ألف فأقل، ثم تنهزم الجهة المكسورة، وترتفع الحرب، وهذا في الحرب التي بلغت حدها، وإلا فلا يصل لهذا المقدار إلا القليل من الحروب.

الصلح بين الأمير وفرنسة ثم نقضه

ثم بعد تلك المحاربة المتقدمة وقع الصلح بين الأمير وبين الدولة الفرنسية، وتمت المهادنة سنين ثم انتقضت، وسبب نقضها هو أن الدولة الفرنسية كانت أخذت قسنطينة من يد الحاج أحمد باي، خرجت إليها من بونة، وانكسرت أول مرة، ثم خرجت إليها من طريقها مرة ثانية بقوة عظيمة،

يُقال: إن عسكرها كان ستين ألفاً ما بين راكب وماشٍ، فملكَتْها عنوة، وسبب انكسارها في المرة الأولى هو أنها لما احتاطت الجيوش الفرنسية بها، وصارت تجعل لأنفسها الاستحكامات صار رئيسها يجول بين صفوفها، وإذ بكورة من مدافع سور البلد أطلقت على ذلك الرئيس، ففرقته شذر مذر، ثم انتشبت الحرب بين أهالي البلد وبينها، ولموت ذلك الرئيس وشدة البرد انكسرت الجيوش الفرنسية، وخسرت خسارة عظيمة، وكان بين المحاربة الأولى والثانية ستة أشهر، ولم يحضر واليها الحاج أحمد باي لواحدة منهما، فإنه لخوفه من الأهالي بسبب كثرة ظلمه لهم الظلم التام، كان كلما توجهت الدولة الفرنسية لأخذها يخرج بمن كان معه من الأتراك إلى محل بعيد منها، ثم يراقبها منتظراً ما يصير إليه حالها، وإنما كان ذلك الذي يحث الأهالي على الدفع على الأهل والأولاد والوطن قائد البلد ابن البجاوي رحمه الله إلى أن أصيب وخرَّ ميتاً، فدخلوها بعد محاصرتهم لهما ثمانية أيام، وكانوا حاولوا أن يدخلوها من الباب، فما قدروا بعد أن ضربوا الباب بالمدفع، وانفتح المصراعان لهم فهجموا مرات متعددة،

ورجعوا خائبين، وأغلق الباب وأعيد كما كان عليه، فلما أيسوا من دخولها منه لشدة تحصنه بالطابيات التي كانت فوقه تركوا الباب ونصبوا عدة مدافع تجاه السور من محل بعيد عن الباب ليلاً، وأضاؤوا عليه شعلة كهرَبائية[1]، ثم تتابعت صواعقهم على ذلك المحل، ففتحوا فيه باباً، ثم اقتحمت عساكرهم على ذلك المحل، وهجمت بقوتها عليه فدخلت، ثم صارت المقاتلة بينهم وبين الأهالي بالأزقة والشوارع مدة من الزمان، ثم وقع التسليم والإعلان بالأمان.

ولما دخلوها [أي الفرنسيون] فرَّ الكثير من الرجال والنساء، ونزلوا من كاف اشكورة بالحبال، خوفاً من السبي، أو إطلاق سبيل الفاحشة فيهم، وكان النزول منه صعباً جداً ومخاطرة عظيمة، ولكنَّ شدَّة الخوف أَلجأتْهم إلى ذلك النزول من تلك المهواة.

وبعد أن ثبتت قدم الفرنسية في قسنطينة[2] رام بعض أولاد ملكهم فيليب أن يذهب إليها، فخرج من الجزائر

(1) في الأصل: (كرهبائية).

(2) في الأصل: (قسمطينة).

متوجهاً نحوها على طريق البر، ومشى في أراضي الأمير ورعيته، ولم يستأذنه في ذلك، فلما سمع به امتلأ غيظاً وغضب الغضب الشديد على العسس الذين كانوا حوالي الطريق حيث إنهم لم يشهروا عليه السلاح، ثم كتب مكتوباً للفرنسيين[1] يقبّح منهم ذلك الفعل، فأجابوه: حيث إن الولد صغير السن وقد اختار ذلك، وحتم أن يمشي في ذلك الوقت، ولا سعة فيه للإخبار مع تحققنا أن ذلك الأمر لا يشق عليك، حيث لا ضرر فيه لا عليك ولا على الأهالي، فالخطب سهل.

فلم يرض [الأمير] الجواب، ونقض المهادنة التي كانت بينهما، وانتشبت الحرب، فكانت سبباً لأخذهم تلمسان منه أول مرة، ثم احتاط فيها منهم[2]، وضيق عليهم غاية الضيق إلى أن خرجوا منها صلحاً، بسبب ما لحقهم فيها من الضنك والشدة وانقطاع المؤونة عنهم، فلم يتيسر لهم البقاء بها.

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) في الأصل: (فيهم)، والأصح للمعنى ما ذكر أعلاه.

ثم انعقد الصلح بينهما سنين، وفي أثناء هذه المدة بعث الأمير سفيره الحاج المولود بن عرَّاش إلى باريز عاصمة ملكهم، وقاعدة سلطنتهم، واجتمع مع الملك فيليب، وجعل له ضيافة أحضر إليها جملة من رؤساء دولته ووزرائه، وقال له: نحن نريد دوام المواصلة بيننا وبينكم وتمام المواددة، ولكن لا يتم ذلك إلا بشرط أن يكون الحد الفاصل بين رعيتنا ورعيتكم النهر الفلاني الذي هو بالأرض الفلانية، وذكر بعده شروطاً أخر فقال له: أما ما ذكرته من الشروط غير المذكورة فإنني أقبلها وأصدّق عليها الآن، وأما الأول فموقوف على تصديق الأمير، وإنني قبلته إن قبله ورضي به، وأبقوا ذلك السفير عندهم بباريز ثلاثة أشهر، وقد أطلعوه في تلك المدة على جميع عَددهم وعُددهم ترهيباً له، وإظهاراً لقوتهم، فإنه ما من يوم من الأيام إلا ويمشي أمام المنزل الذي هو فيه جيش عظيم غير الجيش الذي كان رآه بالأمس.

ومن ذلك الوقت اعترفت الدولة الفرنسية للأمير بالإمارة على إقليم الجزائر ولقبته بها، وعدّوه من جملة الملوك ذوي المقاطعات، فلما جاء ذلك السفير أخبر الأمير بما قال له

الملك، فقال له: أنا لا أرضى بذلك، ولا أسمح لهم بشيء من بلادي ولو جزئياً، فالحمد لله على عدم تصديقك على ذلك، ولو أدى إلى المحاربة مع أن الذي طلبه مقدار فرسخين ونصف لا غير. فقال له: نحن لا نقدر على محاربتهم أصلاً على ما اطلعت عليه من زيادة العَدَدِ والعُدَد التي عندهم وشاهدته من وفور خزائنهم مع ضعفنا وقلة عددنا، فنحن لا نقدر عليهم!!

فقال له: إن الوهم استولى عليك ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية 249].

ثم قال له بعض الحاضرين لتلك المحاورة: وما يدريك أن تلك الجيوش التي كانت تمر بمرأى منك تكون الثانية هي الأولى، وإنما يغيرون هيئتها ولباسها، فسكت، ثم بعد مجيء السفير بمدة وقع التقاطع وسببه ما تقدم، وليته سمح لهم بعشرة فراسخ. ثم بعد ذلك عظم البلاء واتصلت الحروب، وتوالت الشدائد على ذلك الإقليم، ولم تطب الراحة لأهله مدة خمس سنوات متوالية.

حرب ثنية مزاية

ولنذكر حرب ثنية مزاية من أراضي المدية، وكان حضرها الأمير وخليفته السيد محمد بن عَلَّال، وخليفته الثاني السيد الحاج محمد البركاني، وكانت ضباط العساكر مجتمعة فيها، وبسبب ذلك الاجتماع حصلت من العساكر همة قوية وشجاعة كلية، إذ قد حضرت تلك النهار بقلوب صخرية، وأفئدة حجرية، مع أن عددها كان لا يزيد على ستة آلاف، ما عدا جموع المتطوعة من الأهالي، وفعلت ما لا يصدر إلا من نحو الثلاثين ألفاً فأكثر، والأمير كان من عادته أنه لا يجمع في جميع مواقعه عساكره كلها، ويحارب بها خوفاً عليها من أن تُفْنيهَا الحرب لقلتها، بل كان عسكره دائماً متفرقاً على خلفائه، وهم السيد محمد بن علال، والسيد محمد البوحميدي، والسيد الحاج محمد البركاني، والسيد محمد بن سيدي عقبة، وذلك لأن الجيوش الفرنسية[1] كانت تخرج متفرقة من جهات شتى لتعظم المكايدة بذلك، وليتفاقم الأمر

(1) في الأصل: (الفرنسوية).

على الأمير، وبسبب ذلك كان يقابل هو جيشاً، وكل واحد من خلفائه المذكورين يقابل جيشاً من جيوشها، ومع كل واحد منهم قطعة من العسكر النظامي وجموع من الأهالي بمقدار عشرة آلاف أو أقل أو أكثر.

وسعادة الأمير لو جمع عسكره وحارب بهم لأفنتهم الحرب في مقتلة أو مقتلتين، واضمحل أمره في مدة يسيرة لقلة عَدده وعُدده، إذ جميع عسكره الذي كان مقيداً في الدفاتر، وله معاش اثنا عشر ألفاً منتظمة الانتظام الموجود بين الدول، منهم ثمانية آلاف مشاة وأربعة آلاف خيالة، وما كان تقوية سوادها إلا بجموع الأهالي المتطوعة، ولم يحصل في جميع حروب الأمير ومواقعه مع كثرتها وتعددها ما حصل في المقتلة الأولى من القتل، وفي مقتلة ثنية مزاية.

وأما حرب جامع الغزاة[1] فإن العساكر الفرنسية كانت فيها قليلة جداً، ولذلك استأصلهم الأمير جملة واحدة في مدة يسيرة قتلاً وأسراً، ولم ينجُ منهم أحد، والذي أوجب ثبات عسكر الأمير الثبات

(1) وردت في تحفة الزائر (الغزوات).

الكلي في مقتلة ثنية مزايا المتقدمة هو اتخاذهم التحصينات اللازمة، فإن الجيوش الفرنسية جاءت قاصدة دخول المدية، فسبقتها عساكر الأمير، وجعلت أمامها بالطريق استحكامات وثيقة، ثم انتشبت الحرب بين الفريقين، وهجمت العساكر الفرنسية[1] المرة بعد المرة على عساكر الأمير روماً أن تخرجها من الاستحكامات، وفي كل هجوم ترجع إلى وراء متولية القهقرى عن عدد بليغ من قتلى وجرحى حتى صارت الأرض مزروعة بجثث الآدميين ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة، الآية:7].

ومن العجب أنهم وجدوا في هذه المقتلة جملة من العساكر المصرية مع الجيوش الفرنسية، وكلها من الجيوش السودانية، ولم يتحقق سبب حضورهم إلى الآن، ويقال: إن محمد علي باشا والي مصر أَمَدَّهم بتلك الطائفة، وهو مما يستبعد، والله أعلم.

ثم لما اشتدت النيران ذلك اليوم ولم تستفد الجيوش الفرنسية من هجوماتها شيئاً أمر ابن الملك فيليب بتقديم

(1) في الأصل: (فرنسوية).

طائفة من عسكرهم المسمى بالزوَّاف، وكان بعيداً عن معمعة القتال ودقوا عليه الموسيقا الكبيرة لتعظم عند ذلك نخوتهم، فجاؤوا وحملوا بجملتهم على عسكر الأمير الذي كان بالاستحكامات بقوة عظيمة، فأخرجوهم منها، وزحزحوهم عن أماكنهم بعد أن مات منهم في هذا الهجوم خلق كثير، وتكبدوا بسبب هذا الهجوم المتوالي خساراتٍ جمة، وجُرح ابن الملك فيليب في رجله، ومات بسبب ذلك الجرح، وإن أشاعوا أن الكروسة هي التي مرت على رجله، والصحيح أنه أصيب بالرصاص، وحمل ومات، ثم انفصل النهار عن عدد بليغ من قتيل وجريح، وناهيك بمحاربة يموت فيها ابن الملك. وفي اليوم الثالث بالقرب من ذلك المحل انتشبت الحرب بين الفريقين، واشتدت وبقيت إلى أن تولى النهار، ثم انفصل الجمعان، وكانت الغَلبة لعساكر الأمير عليهم.

والحاصل أن حروب الأمير كثيرة، وكذا غزواته على الأعراب التي أعانتهم [أي الفرنسيين] عليه، وجدَّت معهم كل الجد، كثيرة أيضاً، يحتمل جميعُها مجلداً كبيراً.

وسبب إعانة الأعراب لهم [أي الفرنساوية]؛ أن الدولة الفرنسية لما تحققت صلابة الأمير بعدم استعماله السياسة معها والمداهنة شرعت في جلب الأعراب ببذل الدراهم البليغة لكبرائها حتى استجلبتهم بذلك كل الجلب، وبسبب ذلك بذلوا مجهودهم معها، وحيَّروا الأمير وسعوا في تأخر أمره، ولا سيما في آخر الأمر، فإن من الأمور المحققة؛ أن الدولة الفرنسية لو لم تستجلب قلوب الأعراب بالإحسان الذي تقتضيه السياسة، واستعجالها الأمير بالمحاربة قبل اشتداد عضده وتقويته بتكثير العساكر، ما قدرت عليه أصلاً، ولكنها لما رأت شدة صلابته التي تقتضيها خاصية الإقليم مع جده كل الجد في كتب الجيوش، والتفاته كل الالتفات للأمور العسكرية بهمة قوية تحققت بأنها إن تركته حتى يتقوى عضده، ويكتب خمسين ألفاً من أهل هذا الإقليم الذي يعد كلُّ واحد منهم بعشرة من غيرهم كما هو مشاهد من عسكره، فلا يتيسر لها أخذ الإقليم أصلاً، وقد كانت نية الأمير أن يكتب ذلك القدر من أهل ذلك الإقليم كما صرح بذلك بلسانه.

فرنسا تنقض المعاهدة

وبسبب ذلك بادرته بالمحاربة قبل أن يشتد ساعده بما ذكرنا، ونقضت المعاهدة التي كانت بينها وبينه، وجيشت جيوشاً بليغة وخرجت بها من مواضع شتى متعللة بعدم رضا الأمير بتغيير الحد الذي كان المَلِكُ [قد طلبه][1] من سفيره كما قدمنا، وحينئذ توالت الحروب على أعلى ذلك الإقليم، وتتابعت النكبات، ودامت البليات إلى أن استولوا على ذلك الإقليم بجميعه مدينة بعد مدينة، وجبلاً بعد جبلٍ بعد معاناة شدة حروب ومقاساة ضنكٍ وكروبٍ إلا أن الأمير لم يتم لهم إلا بعد أن ملكوا تلمسان، لأنهم قبل استيلائهم عليها كانوا كلما أخذوا بلداً من البلدان يحاط بهم من جميع الجهات، تبقى جيوشهم محصورة بها على غاية ما يكون من الضيق، ولا تصل إليهم المؤونة إلا بشق الأنفس وأوامر الأمير ونواهيه سارية في الإقليم بجميعه مع كون المدن كلها بأيديهم إلا مدينة تلمسان وجميع المدن عليهم مغلقة الأبواب، وإن وقع القتال فإنما يقع

(1) زيادة من المدقق للإيضاح.

في طاقات بالأسوار، ولا يدخل عليهم أحد، ولا يتجاوزون أسوار المدن التي هم بها، ودام هذا الحال معهم مدة وأعينُ جميع الرعايات، وأهل الإقليم طامحة إلى تلمسان ماذا تصير عاقبة أمرها. ثم إن خليفة الأمير السيد محمد البوحميدي كان والياً عليها، ومشدداً على أهلها، ومنغصاً عليهم وقتهم، وكانت تكررت شكاياتهم عليه للأمير، فلم يسمع لهم فيه ولم يُنَفس كربهم بعزله لكونه من خواص أحبابه، ومن عادته أنه لا يسمع في ولاته عَذل أحد، ويقول: لا يمكنني أن أعثر على من يرتضيه الجميع، ولا يشتكي منه أحد، وربما لو عزلت هذا لكان من يأتي بعده أدهى وأمر، فأضمرت تلك البلد المذكورة وما حولها الشر، وانتظرت الفرصة.

استيلاء الفرنسيين على تلمسان

ثم إن الدولة توجهت إليها لما علمته من ذلك فدخلتها، واستولت عليها، وبمجرد استيلائها عليها انفتحت لها جميع أبواب المدن التي كانت عليها وكانت أبوابها مغلقة عليها، وذهب الضيق عنها بالكلية.

ومن وقتها تشتت الأمور على الأمير، وظهر تغلب الدولة الفرنسية عليه، فكانت تلمسان في المفتاح لهم لجميع الإقليم مع تأخر أخذها، وكانت لبنة التمام، وقد كانوا أخذوها من الأمير قبل ذلك، فحاصرهم فيها إلى أن أخرجهم منها صلحاً، لأنهم في ذلك الوقت كانوا لم يستولوا على غيرها من المدن التي كانت تحت ولايته من المدن البرية، وكانت قوته وقتئذ متوفرة في الجملة، وقلوب جميع الأهالي معه، وفي المرة الثانية كانت هي آخر بلدة أخذوها منه، وكان قد بدأ ضَعْفُهُ وعلم الكل أن حبل النجاح قد انقطع.

استشهاد السيد محمد بن علال

وزيادة على خروج تلمسان من يد الأمير أن خليفته المقدام السيد محمد بن علال كان سائراً بعسكره بأرض الجعافرة، ثم نزل وقد كانت العساكر الفرنسية بإثره، وبمجرد نزوله أدركته ورامت أن تحيط به، فتلقتهم عساكره، وكانت على غاية من التعب، ثم انتشبت الحرب بينهما، ولما قويت عليهم الجيوش الفرنسية اجتمعوا وجعلوا شبه قلعة

من عساكرهم ثم اشتعلت نار الحرب ولم يكن إلا شيئاً قليلاً، وحصل بعض الفشل في عسكره؛ إذ هجمت عليها الجيوش الفرنسية بقوتها، فقال بعض رؤساء العسكر للمذكور: اركبْ فرسك، وانجُ بنفسك، فإن الأمر شديد، وكان نازلاً بوسط العسكر، فلم يفعل ولا استحسن ذلك القول منه، إذ كانت شجاعته ومروءته تأبى ذلك، فصبر ثم ما لبث بعد ذلك إلا برهة يسيرة، واختل نظام العسكر بكثرة القتلى، فركب فرسه إذ ذاك ولم يبارح المقتلة إلا مقدار عشر دقائق حتى أصيب وخرّ من فرسه ميتاً رحمه الله تعالى، وقُتل جميع عسكره سوى من هرب وتوارى خلف الأشجار الملتفة. والحاصل أنه لم ينج من ذلك الجمع إلا النادر.

وكانت هذه النكبة عقب أخذ تلمسان، فتعاظم بها الخلل، وفشا التلاشي، وكثر الزلل، وكان عم الأمير المتقدم اسمه سابقاً أشار عليه بأن يحصن تلمسان كل التحصن، ويجعل عليها قلاعاً شاهقة يجلب إليها جميع ما يلزم من المهمات والذخائر والآلات ويتخذها قاعدة مملكته، ويعيدها لما كانت عليه أيام ملوكها الأوائل بني زيان، وقال له: متى

بقيت في ملكك لا يحصل للإمارة تأخير أصلاً، فكان الأمر كذلك فبمجرد ما خرجت تلمسان من يد الأمير خرج الإقليم بأجمعه من يد الأمير دفعة واحدة، وأصبحت الفرنسية في التقدم الكلي، وتم لها ملك الإقليم لأنهم في الحقيقة ما ملكوا الإقليم بجميعه إلا بعد تملكهم لها، وذلك سنة 1259هـ.

وقد كان أخبر بعض المطلعين على حقيقة الأمر بأنه لو تأخر أخذُ تلمسانَ بمقدار شهرين أو ثلاثة لكانت الفرنسية جعلت شروطاً بينها وبين الأمير، وخرجت له من جميع المدن التي كانت دخلتها واستولت عليها، فإنها ما انفتحت أعينها إلا بعد استيلائها على تلمسان.

ثم بعد أن ثبتت قدمهم فيها شرعوا في بذل الأموال البليغة لرؤساء الإقليم وأكابره أكثر مما كانوا يبذلون لها سابقاً، وأطلقوا لهم الإذن التام والتصرف العام فيما يريدونه، وأظهروا للأهالي غاية الإحسان، فاستجلبوا قلوبهم بعظيم سياستهم، وتوجهت القلوب إليهم لما كانوا يظهرونه من تمام اللطف الذي توجبه السياسة، وبها يحصل التمكن

للإنسان فيما يريد، فأعانتهم الأعراب بسبب ذلك على الأمير بوجوه الإعانة وقاتلته دونهم، وبسبب ذلك اتسع الخرق عليه، وأصبح أمره في الضعف شيئاً فشيئاً إلى أن خرج من جميع الإقليم الجزائري بعسكره وجموعه إلى أراضي المفاوز والقفار.

ولما لم يتيسر له ولا لجموعه البقاء بها من شدة الغلاء والقحط رجع والتجأ إلى الدخول في أطراف حدود الإقليم المراكشي مما يلي حدود الجزائر بمحل كانت برابره فوضى، وهم دائماً يقتتلون بعضهم مع بعض، ويقطعون الطرق، والحكَّام المراكشية لا تنالهم، ولا يسمعون قولها، ولا يلتفتون إليها ولا لأمرها أو نهيها، ولا آمراً بينهم يأمر بمعروف ولا ناهياً ينهى عن منكر، وإنما هي تحت سلطان مراكش بمجرد الاسم.

فلبث مخيماً هناك نحو الثلاث سنوات أو ما يَقرب منها، وكان في هذه المدة يشن الغارات على الأراضي الجزائرية وعلى أعرابها الذين استجلبتهم الفرنسية بسياستها، فقاتلوه معهم، وتارة على الجيوش الفرنسية ثم يرجع بما غنم إلى تلك

الأراضي والجبال، ويستقر بها إلى أن ينفد بعض ما حصله من ذلك الغزو، فحصل للفرنسية بسبب ذلك غضب شديد، ولا سيما حين لم يتمكن لها الوصول إليه لتحصنه بتلك الأراضي والجبال، وعظيم المشقة إن تجشموا الوصول إليه بما يلحقهم من الخسارات الجسيمة، والمواقع العظيمة من أهالي تلك الجبال الشوامخ، وربما لا يتم لهم المطلوب، ولا يظفرون بالمرغوب، فبعثوا لسلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بأن يخرجه من أرضهم حسب الاتفاق والشروط التي كانوا اشترطوها عليه حين محاربتهم له بأراضي مدينة وَجدة من أطراف مملكته مما يلي حدود الجزائر، لا سيما وأن الأمير كان بعد مقاتلتهما بتلك الأراضي غزا غزوة، فلما سمعوا به خرجوا إليه من جامع الغزاة[1] ليمنعوه من الدخول إلى الأراضي الجزائرية فحاربهم، ولما تحققوا بالهلاك جعلوا عسكرهم شبة قلعة، فاحتاط بهم، فلم يبرحوا إلا زماناً يسيراً حتى استأصلهم جميعاً، ولم ينج منهم أحد إلا من أخذ أسيراً من العسكر ومن الرؤساء الذين لم يقتلوا في المعركة.

(1) وردت في تحفة الزائر (الغزوات).

ثم سار مشرّقاً فلما وصل إلى أراضي قرية تموشنت صادف في طريقه ثلاثمئة عسكري من الجند الفرنسي كان آخذاً جملة من الصناديق المملوءة بالبارود والسلاح، فلما دنا منها سلَّمت أمرها إليه بلا ضرب ولا محاربة، ووضعت السلاح، وذلك أن رئيس تلك الشرذمة قال لها:

لا يسعنا إلا التسليم، فإننا إن حاربنا فلا بد أن تأخذ النار في صناديق البارود فتحترق يقيناً، وعلى كل فلسنا ناجين فاختاروا التسليم، ووضعوا سلاحهم فاستلمه عسكر الأمير.

وبعد تسليمهم بعثهم الأمير إلى دائرته ومحلّ مخيّمه، وسار مشرّقاً إلى أن وصل إلى جبال زواوة بالقرب من الجزائر بخيوله دون عساكره المشاة، فإنه قد أذن لها في الرجوع لحماية أهله ومن كان معه من الأهالي من جماعة البرابرة التي خيَّم بوسطها.

وقد فتك في هذه الغزوة فتكاً ذريعاً بالعربان التي كانت معينة للفرنسية عليه.

سلطان مراكش يأمر بإخراج الأمير

ثم بعد رجوع الأمير من هذه الغزوة إلى محله من الأراضي المراكشية كتب سلطان مراكش إلى رؤساء تلك الجبال من البرابرة التي كان الأمير مخيماً بأراضيها بجموعه وعسكره، ومستقراً بوسطها بأن يخرجوه وجموعه من بينهم، وحثهم على ذلك كل الحث وحرضهم كل التحريض، وقرأت رؤساء البربر مكاتيبه على الناس بالأسواق وفي الأندية وفي جميع المحافل ومواضع الاجتماع، فلم يلتفتوا إلى تحريضه لعدم اتفاق كلمتهم على ما طلبه منهم، فإنهم وإن كانوا على غاية من التوحش يعلمون أن الأمير مجاهد في سبيل الله، وقد دخل أرضهم وهم مسلمون، فتحرم مقاتلته شرعاً وتقبح طبعاً على أنهم إن راموا ذلك فلربما يخسرون ولم يحاول ذلك منهم سوى برابر قليعة المجاورين لمدينة مليلية من أراضي الريف، فرجع سهمهم عليهم، وخسروا يومهم وأمسهم، فإنهم حاربوا الأمير، فقتل منهم سبعمئة رجل في المعركة.

الأمير يطلب فتاوى من علماء مصر بشأن سلطان مراكش

ثم إن السلطان عبد الرحمن لما أظهر العداوة للأمير وأفشاها لجميع رعيته بحيث إنها اتضحت لدى الخاص والعام، ورام محاربته بعث سعادة الأمير سؤالاً لعلماء مصر يستفتيهم في شأنه؟

فأجابه العلامة المحقق محمد عليش شيخ المالكية بالديار المصرية، ونص السؤال:

الحمد لله من خويدم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر بن محيي الدين إلى ساداتنا العلماء الأبرار الأفاضل الأخيار رضي الله عنكم وأرضاكم، وجعل الجنة منزلكم ومثواكم.

[ما] جوابكم عما فعله بنا سلطان الغرب من المنكرات الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس فضلاً عن أعيانهم، فأمعنوا نظركم فيها شافياً، وأجيبونا جواباً كافياً وافياً خالياً من الخلاف ليجلوا قلب سامعه عن الاعتساف،

وذلك أنه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر، وخلت الإيالة من الأمير، وانقطعت السبل، وعطلت الأسباب، وطالت شوكة الكافر، اجتمع ذوو الرأي، وتفاوضوا على أن يقدموا رجلاً من ساداتهم يؤمّن السبل، فاختاروا رجلاً منهم وقدموه لذلك، فتقدم وعمل جهده فيما قدموه له، فتأمنت السبل بحمد الله، وتيسرت الأسباب بعونه، وجاهد في سبيله، وذلك من لدن سنة 1246هـ إلى سنة 1263هـ هذه، ولن تزال كذلك إن شاء الله، فإذا بسلطان المغرب فعل بنا الأفعال التي تقوي حزب الكافر على الإسلام، وتضعفنا، وأضر بنا الضرر الكثير، ولم يلتفت إلى قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يسلمه، ولا يظلمه»، ولا إلى قوله ﷺ: «المؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»، ولا إلى قوله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة.

فأول ما فعل بنا أننا لما كنا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحواً من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبيل ومادة البر

من الحب والحيوان وغيرهما تضييقاً عليه وتضعيفاً له خصوصاً من جهة الحيوان؛ لأن قانون عسكره أنهم إذا لم يأكلوا اللحم يومين أو ثلاثة يفرون عن طاغيتهم، ولا يقاتلون، ولا يلامون حتى بلغت قيمة الثور عندهم مئة ريال دُورُ، فإذا بالسلطان المذكور أمدهم وهم في الضيق الشديد بألوف مِنَ البقر وغيرها.

الثاني: أنه غصب من عاملنا ألفاً وخمسمئة بندقية إنكليزية.

الثالث: أنه غصب من وكيلنا أربعمئة كسوة جوخ أعددناها للمجاهدين.

الرابع: أن بعض المحبين لله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين، وإذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه، وقال: أنا أحق بها، والحال أنه لم يجاهد. وأيضاً: إن بعض القبائل من رعيته عزموا على إعانتنا بأنفسهم في سبيل الله، فمنعهم من ذلك، وأعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله، فحبسه إلى الآن زجراً له وردعاً لغيره.

الخامس: أنه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيين أياماً قلائل ثم تصالحا اشترط عليه الفرنسيس أَلَّا يتم الصلح بينهما إلا إذا حل أمر هذه العصابة المحمدية (المجاهدين)، ويقبض رئيسهم، فإما أن يحبسه طول عمره، وإما أن يقتله، وإما أن يمكنهم منه[1]، أو يجليه من الأرض، فأجابه السلطان إلى ذلك كله.

ثم أمرني بترك الجهاد، فأبيت لأنه ليس له عليّ ولاية، ولا أنا من رعيته ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من لم يحتمل، وأسقط من المجاهدين ركباً، ثم أخذ يسعى في قبضي، فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيس، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، وكان استحل ذلك، فأبوا، جزاهم الله خيراً.

فإذا تصورتم أيها السادات هذه الأفعال التي تتفطر منها الأكباد، وتتناثر عند سماعها العباد، فهل يحرم عليه

(1) في الأصل: (يمكنه منهم)، والمعنى هكذا لا يستقيم، والصواب ما أثبتناه في المتن.

ذلك، ويضمن ما غصب؟ ويُقتل بنا إن قتَلنا حسبما نص عليه المعيار، ونقله عن نصوص الشافعية والمالكية؟ وهل المهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة؟ لأن الجهاد تعين عليه قبل أن يفجأه العدو بسبب قربنا منه، وعجزنا عن الجهاد ولأن منفعتها عائدة على الكفار ووبالها على الإسلام كما هو مشاهد حسب ما نص عليه في (المعيار) أيضاً، وهل يَحِلّ بيع البقر لهم وقت أن حصرهم المسلمون على حرمة بيع الخيل لهم والشعير وآلة الحرب أم لا؟ وعلى أنه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا وتفرق جماعتنا وما ينشأ عنه بترك الجهاد بالكلية، واقتحم الأمر، وشق العصا، وجاءنا بالجيش ليقتلنا، ويأخذ أموالنا، ويفرّق جماعتنا، فهل يجوز لنا أن نقاتله بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة في (شرح لامية الزقاق) في آخر باب الإمامة الكبرى، ونصُّه: (انظر إذا خلا الوقت من الأمير، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ليمهد سبيلهم، ويرد قويهم عن ضعيفهم، فقام بذلك قدر جهده وطاقته، والظاهر أن القيام عليه لا يجوز، والمتعرض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته، ففي

صحيح مسلم عن زياد بن عِلَاقةَ، قال: سمعت عَرْفَجَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول[1]: «إنها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان»، وبسنده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه» أم لا يجوز لنا ذلك، ونترك الجهاد!! ليس إلا جوابكم تؤجرون وتحمدون، وعليكم السلام في البدء والختام، والحمد لله رب العالمين.

فأجاب الأستاذ المذكور بما نصّه:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين، نعم يحرم على السلطان المذكور - أصلح الله أحواله - جميع ذلك الذي ذكرتم حرمة معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من.....[2] ولم يخطر ببالنا أن يصدر منه هذه الأمور مع مثلكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وما قدّر الله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون خصوصاً وأنتم جسر بينه

(1) كلمة (يقول) إضافة من المدقق، وليست في الأصل.

(2) كلمات مطموسة.

وبين عدوّه، وكذا ضمانه لما غصب ضروري، لا يشك فيه مسلم، وكذا استحقاقه القصاص منه بقتله مؤمناً عمداً عدواناً مباشرة، أو بإكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التأويل، والمهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة، وبيع البقر وسائر الحيوان، والطعام والعروض، وكل ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعاً إجماعاً ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حصر المسلمين إياهم وفي حال عدمه، إذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من النساء والصبيان من أهل تلك البلاد ومَنْ قَرُب منهم كأهل عمل السلطان المذكور وفقه الله تعالى، فكيف يتخيل مسلم أن معاملتهم بما يُنفعون به ويتقوون به على البقاء في أرض الإسلام جائزة مع ذلك، وإن اقتحم الأمر، وشق العصا، وأتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله[1] وجوباً عينياً، إذ هو حينئذ كالعدوّ والبغاة المتغلِّبين الفاجئين القاصدين الأنفس والحريم لعدوانه وتجارُئِهِ على ما أجمع المسلمون [عليه] وهو

(1) في الأصل: (قتالاً) والصواب في تحقيق المعنى ما أثبت أعلاه.

أنفسكم وحريمكم وأموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالإجماع من جهاد الكفار الفاجئين لكم، والمقتول منكم في قتاله كالمقتول في قتال الكفار ليس بينه وبين الجنة إلا طلوع الروح، فصمموا على قتاله، وأعدوا له ما استطعتم من قوة، نصركم الله تعالى عليه وعلى أعداء الدين، وبارك فيكم، وفي كل من أعانكم من المسلمين، وخذل كل من عاداكم كائنا من كان، وجعل كيده في نحره.

وقد اقتصرت من السؤال والجواب على هذا المقدار رَوْماً للاختصار.

رسالة من ملك مراكش إلى الأمير بالتسليم

ثم لما أيس ملك مراكش من اجتماع كلمة البرابرة على محاربة الأمير وخروجه من أراضيهم مع تشديد الدولة الفرنسية عليه في ذلك، بعث إلى الأمير وفداً، فلما اجتمعوا به قالوا له: إن سيدنا يقول لك: إما أن تذهب إلى الصحارى والقفار، وإما أن تسلم أمرك إليَّ، وتدخل تحت طاعتي

وعسكرك ندخله في عسكري وكل من كان منهم رئيساً يبقى على رئاسته، وتُفرق تلك الجموع التي هي معك، وإلا بعث إليكم من يفرق جمعكم.

فأجابهم: بأن هذه الأراضي مهجورة، ولا سلطة له على أهلها ولا أمر له فيهم ولا نهي ولا ضرر عليه في دخولي لهذه الأراضي حيث لا نفع له يحصل من أهلها، وقد ألجأتني الضرورة إلى الدخول لها.

وكان من المحقق أن الأمير لو سلم أمره إليه، ودخل تحت قبضته لا بد وأن يقتله قطعاً وخروجه من تلك الأراضي إلى الصحارى المهلكة ذات المفاوز والقفار لا يمكنه لضعف حال من كان معه من الجموع وهم نحو خمسة وعشرين ألفاً ما بين رجال ونساء وأولاد ولو تكلف هو الخروج بعسكره وتركهم للبرابرة لنهبتهم وسبت نساءهم وأولادهم وهم قد انقطعوا معه، والتجؤوا إليه وعرضوا أولادهم ونساءهم وأنفسهم للتهلكة لأجله وابتغاء مرضاة الله ورسوله، فلم يسعه إلا البقاء معهم بتلك الأراضي، وتسليم الأمر لمدبره يصرفه كيف يشاء جلَّ جلالُهُ.

فلما رأى ملكُ مراكش الأميرَ مصمماً على عدم تسليم نفسه إليه وعلى خروجه من أرضه بعث إليه جيشاً من جيوشه تحت رئاسة عظيم جيوشه المسمى القائد الأحمر، وأمره بمقاتلة الأمير وتشتيت شمله وتفريق جموعه.

فسار نحو الأمير مجداً إلى أن قرب من مخيم الأمير على ست ساعات، بعث أربعمئة فارس لتخدع الأمير، وتأخذه على غرة، ويظهرون بالسلم عند مرورهم، فإذا ظهر لهم الأمير أخذوه حياً أو أنهم يطلقون عليه الرصاص، فبمجرد ما قربت من الأهالي تلك الشرذمة بادرتها الأهالي بالرصاص، فانجرح منهم البعض، وركب الأمير في جملة من الخيول ولحقهم فرجعوا إلى محلتهم خائبين.

وبعد ذلك بيومين أو ثلاث جمع الأمير أمره، وغزا عليهم ليلاً قبيل انصداع الفجر، فهزمهم وقتل رئيسهم القائد الأحمر بالمعمعة، ثم قطع رأسه، واستولى الأمير على جميع ذخائر ذلك الجيش وأسلحته وخيوله وبغاله، وقع ذلك قبل محاربة برابر قلعية بشهور.

وتقدم أن السبب الحامل إلى بعث القائد الأحمر لمحاربة الأمير هو الشرط الذي اشترطه الفرنسيون[1] على صاحب مراكش لما حاربته وهزمت عساكره في أراضي مدينة وجدة، وذلك سنة 1261هـ وكان صاحب مراكش جمع لهذه الحرب الجموع الوافرة من العرب والبربر، فكانت نحو الثمانين ألفاً ولإعجابها بالكثرة وعدم وجود التنظيم العسكري وعدم أخذ الاحتياطات اللازمة كانت الدائرة عليها، فانهزمت في أسرع وقت وتركت جميع ذخائرها مع قلة الجيوش الفرنسية[2] إذ كانت ثلاثين ألفاً.

ولما رأت الدولة المراكشية أن لا قدرة لها على مقاومة الفرنسية، وإن كانت أكثر عدداً منها بأضعاف طلبت منها المصالحة، فأجابتها إلى ذلك، واشترطت عليها شروطاً، وكان أول شرط أنها تلتزم إخراج الأمير من أراضي مملكتها، فتعهدت لها بذلك ثم فعلت ما فعلت من إغرائها برابر مملكتها عليه، ومن بعثها القائد الأحمر لمقاتلته.

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) في الأصل: (فرنسوية).

ولما لم يحصل لأفعالها المتقدمة نتيجة، جيّشت جيشاً عرمرماً، ووجهته لمقاتلة الأمير، واتفقت هي والدولة الفرنسية بأن يكونوا يداً واحدة عليه، فأتت المراكشية من ورائه ووقفت الفرنسية قرب الحدود الجزائرية أمامه لئلا يفر إلى المفاوز والقفار، وقد خرجت إليه الجيوش المراكشية من فاس في ثلاثين ألفاً، ثم لا زالت تحشد الجيوش، وتنضم إليها الأعراب والبرابر، وتكثر سوادها طلباً للسلب والنهب إلى أن صارت تلك الجموع تملأ السهل والوعر ومعها أولاد ملك مراكش الثلاثة وهم محمد الذي تولى بعد أبيه، وأحمد وسليمان، وحرضهم والدهم كل التحريض على استعمال غاية الاجتهاد في المحاربة، وإبداء التيقظ التام، وشدة الحزم والعزم على تفريق جموع الأمير وقتله أو الإتيان به إليه، فرحلوا مجدين بجيش جرار يسد الخافقين إلى أن وصلوا إلى أراضي قلعية من أراضي الريف وخيّموا بها.

جمع الأمير أمره، وغزا عليهم ليلاً حيث لا يمكن محاربتهم نهاراً لكثرة عددهم وقلة عسكره، إذ لولا وجود التنظيم العسكري عنده دونهم وقوة قلوب جماعته لكثرة

تمرنهم على الحروب لما قدروا على مقاتلتهم لا ليلاً ولا نهاراً، ولا بمقدار لحظة من الزمان، فقاتلهم تلك الليلة بطولها قتالاً شديداً، ودخل عسكره محلتهم الأولى والثانية، وتركوا ذخائرهم وخيامهم، وانضموا جميعهم إلى المحلة الثالثة، ثم انضم الجميع إلى محلة أولاد الملك، وكانت قوته كثيرة، وكل تلك المحلات التي دخلتها عساكر الأمير تركت ذخائرها وخيامها وعظم الأمر حتى صار الليل نهاراً من كثرة النيران البارودية، ولما كلت عساكر الأمير، والجموع التي كانت معه أمرهم بالخروج من تلك المحلات والمخيمات التي كانوا دخلوها قبيل انصداع الفجر، حيث لم يظفروا بالمطلوب، إذ كان مقصوده أن تكون محاربتهم أولاً مع محلة أولاد السلطان، فصدهم صادٌّ عن ذلك، فالتزموا محاربتهم لتلك المحلات التي ذكرناها، ولو أعانهم القدر بمحاربتهم للمحلة المذكورة لحصلت نتيجة وأي نتيجة، ولكن القدر لا يغالب.

ثم خرج الأمير من محلاتهم وخيمهم ولم يأخذوا منها إلا شيئاً يسيراً من أسلحتهم وبارودها وتركوها وجميع ما فيها، وكروا راجعين إلى مخيَّمهم، ثم انتقلوا إلى محل غير محلهم السابق.

ثـم لا زال الأمـير يتباعـد عـنهم وهـم يتقـدمون مقتفـين أثـره، ومـا مـن دار يرحـل عنهـا إلا ويصـبحون مخيمـين فيهـا إلى أن نزل الأمير وجموعـه عـلى النهـر الكبـير المسـمى بِملْوِيـة بقـرب مصبّه على البحـر تحـت جبـل كَبْدانـة، وكـان ذلـك المحـل يقـرب من الخط الجزائري على نحو سبع ساعات.

ثم اقتحمت جمـوع الأمـير ذلـك النهـر وعبرتـه عشـية بـلا إذن منـه خشـية مفاجـأة الجمـوع المراكشـية لهـم، وهـم بـذلك المحصـر، فتستأصـلهم جملـة واحـدة ولا ينجـو مـنهم أحـد، إذ لا قدرة لهم على مقاومة تلـك الجمـوع، ولا مفـرّ لهـم لوقـوعهم بـين جبـل ونهـر كبـير عسـير العبـور وبحـر، إذ كـان الجبـل غـربيّهم والبحـر شـمالهم، ونهـر ملويـة أمـامهم، ومـن جهـة يميـنهم الجموع المراكشـية، فأصـبحوا لا ملجـأ لهـم مـن الله إلا إليـه، ولّمـا عبروا ذلـك النهـر بالمشـقة العظيمـة نزلـوا وخيمـوا بـالقرب مـن النهـر، فلـم يلبثـوا إلا يـومين، وإذا بـالجيوش المراكشـية خيمـت بمحلنـا بـالأمس، فتوجـه الأمـير بعسـكره وخيالتـه نحـوهم، وقوضـت الأهـالي خيامهـا، وسـارت متوجهـة نحـو الحـدود الجزائريـة فـراراً مـن مـوت إلى مـوت، ثـم انتشـبت الحـرب بـين

الأمير وبين تلك الجيوش على ذلك النهر، وبسبب تحصن الأمير بذلك النهر، والتفاف شجر الطرفاء بضفته قتل الأمير منهم خلقاً كثيراً، وقد هجموا مرات على النهر، وقصدوا العبور، فلم يمكنهم ذلك لعسر العبور وعدم فترة النيران المتتابعة، وكان كل من رام العبور سقط من على ظهر فرسه إما بالرصاص وإما بطغيان الماء فيأخذه مع فرسه إلى البحر، إذ قد استبحر ذلك النهر عند قربه من البحر.

ثم لما طال الأمر عليهم وأيسوا من العبور إليه وجهوا جيشاً آخر إلى محل بعيد عن معمعة القتال ليعبر النهر بلا معارض، فلما رآه الأمير عبر التفت إليه وفي صحبته السيد قدور بن علال، وترك جملة من خيوله لتمنع ذلك الجيش الذي كان الأمير مواجهاً له مع رئيس خيالته المرحوم محمد بن يحيى، فتكاثرت عليهم الجموع، وهجمت بقوة على النهر فعبرته، وانهزم المذكور بخيوله، ولحق بالأمير؛ إذ قد استحر القتل في جماعته، ثم أمر الأمير بالرجوع، وبذل الجهد في المدافعة، فقال له المذكور: لم يبق إلا الموت، فقال له: ارجع فمت، فرجع بمن معه، فأصيب بأول هجوم، ومات،

وانهزمت خيوله، فعبرت الطائفة التي كان المذكور في مقابلتها، والتقى الجمعان على الأمير فقاتلهم مدة، ثم انهزم قاصداً عسكره المشاة النظامي، الذي كان تركه خلفه، وكانوا قليلين جداً وهم بالنسبة إلى عددهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وقد كان الأمير قال لرئيس عسكره: إننا نحاربهم على النهر، ثم إن تكاثرت علينا الجموع فإننا نلتجئ إليكم وندخل وسطكم، ونجعل العسكر قلعة مربعة الأركان على العادة عند كل شدة، ثم نرسل النيران المتتابعة عليهم إلى أن نفنى، أو يجعل الله لنا فرجاً ومخرجاً.

ثم لما سار الأمير بخيوله قاصداً عسكره المشاة المذكورين اتفق أنه صادف عسكره بطريقهم وادياً، فقال لهم كبيرهم: إن خيول الأمير جاءت منكسرة، فهلموا مسرعين لنقطع هذا الوادي قبل وصول الخيول إلينا وتراكمها علينا، ثم نجعل القلعة المذكورة، فتفرق العسكر ليقطع ذلك الوادي، ثم يجتمع بعد ذلك فاختل نظامه عند قطعها لعسر عبورها وسرعة وصول الشدة إليهم، إذ لم يكن إلا مقدار عشر دقائق حتى دهمتهم خيول الأمير المنهزمة، فشتتهم وفرَّ

رئيسهم في جملة من فرّ، وشدةُ الأمر لم يمكنهم الاجتماع، وفاتهم التدارك مع ذهول العقول واندهاشها، ولم يبق للتدبير مجال وعند ذلك تقطعت بالأمير الأسباب، وتفرّق جمعه، وقتل من ذلك العسكر من قُتل، وأُسر منه من أسر بلا شديد محاربة لاختلال نظامهم، ثم رجع الأمير بمن بقي معه من الخيول على تلك الجيوش ليلقي نفسه في الهلاك، ولم يلذ له البقاء بعد جماعته، وخاطر بنفسه مراتٍ كل المخاطرة، وصارت المكافحة بين خيوله وخيولهم يكر عليهم هو تارة، ويكرون عليه أخرى، وهكذا من وقت الضحى إلى وقت الغروب.

ثم لما وصلت جموع الأمير إلى الحدود الجزائرية من المحل المسمى عند الغروب ولّت الجيوش المراكشية عنها ولمدافعة الأمير تلك الجيوش لم يأخذوا من جموعه سوى العسكر الذي قدمنا ذكره، وكانت الجيوش الفرنسية تجتمع بالقرب من الحد الجزائري ينتظر بها رئيسها المونيسير قدوم دوكدومال ابن الملك فيليب عليه، ليتقدم بها نحو الأمير حسب الاتفاق الواقع بين الدولتين.

ولما وقع بالأمير ما وقع، وفرقت جموعه، وقتل من عسكره من قتل، وأسر من أسر في ذلك اليوم الذي يكاد يشيب فيه الرضيع، طلب الأمير النجاة والخلوص بمن بقي معه من الخيول والذهاب إلى الصحراء ذات المفاوز والقفار، فلم يتمكن له ذلك لكون جميع الطرق التي هي أمامه كانت مسدودة من جميع جهاتها بالعساكر الفرنسية، وبالعسس في جميع المحلات وجميع المظان التي يمكنه الذهاب منها، والخلوص من جهتها إلى الصحراء، وكان الأمير قصد محلات متعددة للعبور منها إلى المفاوز فوجدها كلها معمورة بالعسس بحيث إنه لا يمكنه النفوذ منها بالحريم والأولاد.

ثم قصد السيد المختار أبو تشيش رئيس جبل بني يزناسن من قبائل البربر، لما يعلمه من تمام المحبة والمودة التي كانت بين والد الأمير وبينه، فسار نحوه مجداً يعلو جبلاً، وينزل آخر إلى أن قرب من منزله، فأرسل إليه ليواجهه لعله يشير عليه بأمر أو يجد عنده مخلصاً، فامتنع من مواجهته بعد أن أرسل إليه جميع ما يحتاجه هو وجماعته من الطعام وعلف الدواب، وقال لمن أوصل ذلك: سلموا على الأمير وقولوا

لـه: إنـه لا يقـدر عـلى المخـاطرة بنفسـه وأولاده ومـن يخصّـه ويعرضـهم للهـلاك فـإن المخـاطرة شرعـاً لا تجـوز، وحمايتـه غـير ممكنـة لأمثـالي، إذ هـو مطلـوب لـدولتين وهـا هما حملتـا عليـه بقوتهما وخـيلهما ورجلهـما، فأنـا لا أقـدر عـلى المدافعـة عنـه بوجـه من الوجوه، ولا يقـدر عـلى ذلـك إلا دولـة مـن الـدول لما تـرون ممن هو مشاهد، فالعذر واضح.

فاتضـح للأمـير أن لا مخلـص لـه لوجـود الحـريم والأولاد، ولا يمكـن أن يـتركهم لفـم العـدو وينجـو بنفسـه، فحينئـذ استشـار مـن كـان معـه في أن يسـلّم نفسـه للدولـة المراكشية، فكلهم أَبَـوا عليـه ذلـك، وأشـاروا عليـه بـألَّا يفعـل لما يعلمونه فيهم مـن شـدة الغضـب وزيـادة التـوحش وتمـام الغلظـة وعظـم الحمـق وقـد شـوهد مـنهم مـا يصـدق ذلـك، فـإنهم لما قبضوا أخا الأمير السـيد أبـا بكـر عليـه رحمـة الله في ذلـك النهـار، وكـان مجروحـاً بالرصـاص في رأسـه مـع ابـن أخيـه السـيد محمـد الصـادق ابـن السـيد محمـد السـعيد رحمهـما الله تعـالى أخـذوهما وواجهـوا بهـما أولاد ملـك مـراكش المـذكور اسـمه سـابقاً لينظروهمـا، وكانـت الغوغـاء سـلبتهم ثيـابهم كلهـا حتـى سـاتر

العـورة، وقـدموهما إلـيهم عـلى هـذه الحالـة فنظروهمـا وأمـروا بهما، فَغُلَّا بـالقيود في أعنـاقهما عـلى تلـك الحالـة مـع مـن أمسـكوه مـن عسـاكر الأمـير، ولم يـأمروا لهـما بـما يـواري عـورتهما، وليـت شعري كيف ساغ لمـروءتهما ذلـك مـع مـا اتفـق مـن أن رجـلاً مـن قبيلة المطالسة عـرّفهم بهـما، وقـال لهـم: هـذا أخـو الأمـير، وهـذا ابـن أخيـه، ويعلـمان أنهـما أبنـاء مجـد وفضـل، وقـد قـال ﷺ: «أكرمـوا عزيـز قـوم ذل» ثـم ردوهمـا إلى الأسرى، وبيّتوهمـا تحـت أديـم السـماء، وهـم حفـاة عـراة، والليلـة شـديدة الـبرد، قـبح الله مَـنْ لا مـروءة لـه، ثـم حـزّوا رأس السـيد أبي بكـر المـذكور، وأخـذوه إلى فـاس في جملـة رؤوس مـن مـات مـن جماعـة الأمـير، ووضـعوا تلـك الـرؤوس عـلى سـور مدينـة فـاس مـدة أيـام ثـم واروهـا بعـد ذلـك، وأمـا السـيد محمـد الصـادق المـذكور فـإنهم أخـذوه إلى فـاس مقيـداً في إهانـة شـديدة حبسـوه بهـا سـنة ونصـفاً، ثـم أخـذوه إلى مـراكش مـع مـن أخـذوه مـن عسـكر الأمير.

وبالجملـة فقـد كـان مـن المحقـق عنـد جماعـة الأمـير أن لهـم مثـل هـذه القبـائح وأعظـم، ولـذا لمـا استشـار مـن معـه في

تسليم أمره للمراكشية أبوا عليه ذلك كلهم حتى قيل له: إن سلمت نفسك إليهم فلا بد أن يأخذوك إلى فاس ويلبسوك قميصاً من خشب إلى أن تموت كما هي عادتهم في قتل أمثالك فإن القوم متوحشون، وشدة غضبهم تمنعهم من الأفعال الحميدة شرعاً أو طباعاً.

الأمير يسلم نفسه لفرنسة

فبعد ذلك أجمع أمره على أن يسلم نفسه للدولة الفرنسية لما هو محقق من سيرهم مع القوانين السياسية، وكونهم لا يهينون الرؤساء والأكابر من ذوي البيوت ولو كانوا أعداء لهم، وبسبب ذلك لا يمكن أن يحصل له منهم أدنى إهانة أو ضرر، فكتب لرئيس جيوشها الذي كان مخيماً بالقرب من الحدود الجزائرية أن يؤمنه ليسلم أمره إلى حكومته، واشترط عليه شروطاً، وهي أن تحمله دولته وجميع من يريد الذهاب معه إلى الإسكندرية أو غيرها من البلاد الشامية، وألَّا يتعرضوا لمن أراد السفر معه من رؤساء عسكره وأغوات جيشه، وأن من بقي عندهم من مشايخ

جمـوع الأهـالي التـي كانـت معـه لا يتعرضـون لـه بسـوء لا في نفسه ولا في مالـه، فأجابـه ذلـك الـرئيس بقبـول تلـك الشـروط. وكتـب لـه وختـم، فحينئـذ سـلم نفسـه، وذلـك في أوائـل محـرم سـنة 1264هـ. وتوجـه إلى معسـكرهم، فتلقـوه بالترحيـب والتكـريم والجلالـة والتعظـيم، وتوجهـوا بـه إلى جـامع الغـزاة[1] -اسـم مرسـى مـن مـراسي الجزائـر ممـا يـلي الحـدود المراكشـية- وأركبوه منها في البحـر إلى وهـران، ثـم منهـا قطعـوا بـه البحـر إلى بلادهـم، وأنزلـوه بمدينـة طولـون، وبقـي قهـراً، بهـا نحـو ثلاثـة أشهر ونصف.

فـأتى إليـه بهـا أربـاب المجلـس الكبـير مـن بـاريز قاعـدة ملكهـم، واسـتنطقوه[2] عـن محاربتـه لهـم، وكيـف أبـاح قتـل الثلاثمئـة عسـكري التـي كانـت سـلمت نفسـها إليـه بـأراضي قرية تموشنت[3]، فقتلـت صـبراً هـي ومـن كـان معهـا ممـن أسر في واقعة جامع الغزاة، ولم يترك سوى رؤسائها.

---

(1) وردت في تحفة الزائر: (الغزوات).

(2) أي استجوبوه.

(3) في الأصل: (تموشت).

فأجابهم: بأن محاربتي معكم كانت للمحافظة على وطني، وجرياً على ما تقتضيه الإنسانية، وتحكم به من وجوب مدافعة الشخص عن نفسه، ومن يلوذ به، وأن أهل إقليمي سلموا إلي أمرهم للذب عنهم والقتل دونهم، فيجب علي المدافعة عنهم ما دامت روحي في جسدي. وأما العسكر الذي قتل صبراً فلم يكن ذلك بأمر مني ولا أستحسنه، ولا حمدت من فعل ذلك الفعل، وإنما الرئيس الذي كنت جعلته خليفة عني بعد ذهابي غازياً، هو الذي سولت له نفسه ذلك الفعل القبيح. فتصفحوا تاريخ قتلهم، فوجدوه مطابقاً لما ذكر فإنه كان بين المحل الذي كانوا فيه وقت قتلهم وبين المحل الذي كان هو فيه ما يزيد على عشرين يوماً للمجد، في السير. والسبب في قتلهم هو أن ذلك الرئيس أخبر بأن ملك مراكش يريد أن يغزو عليهم ليأخذ منهم تلك الأسرى في غيبة الأمير، ويسلمها إلى الفرنسية، مع ما لحقه من عظم الإنفاق عليهم وعلى عسكر الأمير، فلم يتأن بعد سماعه ذلك الخبر، وأمر بقتلهم سوى ضباطهم، والضباط الذين سلموا من القتل في محاربة جامع الغزاة[1].

(1) وردت في تحفة الزائر: (الغزوات).

ثـم إن الدولـة الفرنسـية لمـا لم تجـد عليـه نقصـاً في ذلـك القتـل لعـدم أمـره بـه؛ إذ كانـت جواسيسـهم[1] بلغـتهم الأمـر عـلى حقيقتـه مـع إخبـار ضـباطهم الـذين لم يقتلـوا، فـإن سـعادة الأمير بعد أن رجـع مـن غـزوه بقـي مـدة، ثـم استحسـن أن يمـن عـلى تلـك الضـباط، فبعـثهم إلى قريـة مليليـة -اسـم مرسـى مـن مـراسي اسـبانيا- التـي كانـت اسـتولت عليهـا مـن قـديم الزمـان مـن أراضي المراكشـية ممـا يـلي الريـف، وثبتـت قـدمها فيهـا، كـما ثبتت في مدينة سـبتة مـن أرضـها أيضـاً، فاسـتلمت دولـة إسـبانيا الضـباط مـنهم لتسـلمهم لـدولتها، والمظنـون أن تلـك الدولـة دفعت له فداءهم لتأخذ عوضه من دولتهم. والله أعلم.

نقله من مدينة طولون إلى مدينة بو

ثـم إن الدولـة الفرنسـية لمـا تحققـت أنهـا لم تمسـك الأمـير عنوة وقهـراً، وإنـما هـو الـذي سـلم نفسـه إليهـا باختيـاره، نقلتـه على غاية مـا يكـون مـن الاحـتراس مـن مدينـة طولـون إلى مدينـة (بو)، ومـرّ في طريقـه عـلى مدينـة توبـور بعـد أن اسـتقام بهـا مـدة

(1) تعني الاستخبارات.

أيـام للاسـتراحة، وهـي مدينـة عظيمـة عـلى غايـة الحسـن والنضارة.

ثـم لمـا وصـل مدينـة (بـو) أقـام بهـا سـنة ونصـفاً، وقـد أسـكنوه فيهـا بقصـر عـال مبنـي عـلى تـلّ يحـدق بـه مـن جهاتـه الأربـع بسـتان لطيـف، والقصـر المـذكور مهيَّـأ لسـكنى الأكـابر، وقد كانوا أسكنوا فيـه ملكـة إسـبانيا سـابقاً لمـا جـاءتهم فـارَّةً مـن قومها.

نقله إلى إمبواز

ثم نقلـوه مـن تلـك المدينـة لقربهـا مـن الحـد الـذي بينهم وبـين مملكـة إسـبانيا إلى قريـة إمبـواز، ومـر في طريقـه عـلى مدينـة بـوردوا إحـدى مـدن فرنسـا الشـهيرة، وحصـل لـه فيهـا مـن التعظيم والإكرام مـا لم يعهـد نظـيره، وسـبب ذلـك: أنـه وجـد في البلدة المذكورة بعض البطاركـة[1] وكـان قـدم أيـام محاربـة الأمـير معهـم عـلى خليفتـه الشـجاع المقـدام السـيد محمـد بـن عـلال، فـأكرم منزلـه وأحسـن ملاقاتـه، ورأى عنـده بعـض العسـاكر

(1) في الأصل: (البتاركة).

الفرنسية، فلما ودعه قال له ابن علال: إن هؤلاء العساكر قد خليت سبيلهم إكراماً لك وزيادة في ضيافتك. من غير أن يكلمه البطرك فيهم، فأخذهم معه وذهب مسروراً بذلك، فأشاع ما وقع له من الإحسان، ومن ذلك الفعل المؤذن بكمال العقل وتمام المروءة وحسن السياسة، وقد كان ذلك البطرك[1] قد على شأنه وارتفع عندهم قدره، ولأجله زادت البلدة في إكرام الأمير وتبجيله، وقد كانت تأتي الموسيقا البلدية لمحل نزول الأمير، ولا تزال تدق وتغير النغمات من وقت العصر إلى الغروب، ثم تأتي بعدها الموسيقا العسكرية، ولا تزال نغماتها المطربة إلى أن ينام الناس، وهكذا في جميع تلك الأيام والليالي التي أقام فيها بتلك البلدة.

ثم سار منها إلى بلدة أخرى، ومنها إلى قرية إمبواز[2]، فأنزلوا الأمير في قصر عالٍ بها، أعده بعض ملوكهم ليقيم فيه ببعض أزمنة الصيف والخريف، مطلّ ذلك القصر على نهر تجري فيه السفن والبوابير (القوارب) الصغيرة على أحسن ما

(1) في الأصل: (البترك).

(2) في الأصل: (انبواز).

يـرى مـن النضـرة والبهجـة، ويحـيط بـه بسـتان عظـيم فيـه ميـاه وصـهاريج، محتـوٍ عـلى أنـواع الأشـجار والأزهـار، وقـد لبـث الأمير فيه مع أهله، وحشمه ثلاث سنوات.

قصيدة الأمير في محاسن البادية

[قال الشـيخ جمـال الـدين القاسـمي]: حـدثني أخـو الأمـير السيد أحمد المنـوه بـه أن الأمـير لمـا كـان مثقفـاً[1] في إمبـواز[2] اتفـق أن الدولة الفرنسية رامـت أن تحمـل جميـع أبنـاء الباديـة التـي هـي بـإقليم الجزائـر عـلى التمـدن، وعزمـت عـلى أنهـا تبنـي لهـم قـرى يسكنون بهـا، ثـم اضـطرب أهـل مجلسـها في ذلـك، إلى أن عـدلوا عن ذلك القصد خشية ألَّا يتم المطلوب.

وفي خـلال المـذاكرة بـذلك طلـب بعـض كـبراء دولـة فرنسا ثمة مـن الأمـير المنـوه لـه أن يكتـب لهـم شـيئاً مـن محاسـن البادية[3].

---

(1) مثقفاً: أسيراً، انظر إلى القاموس (ث ق ف).

(2) في الأصل: (في انبواز).

(3) روايـة أخـرى في سـبب نظـم هـذه القصـيدة: =

فأنشـــأ هـــذه القصـــيدة اللَّطيفـــة[1]، وأرســـلها إليـــه، ولتفردها في معناها آثرت ذكرها، وهي:

يـــا عـــاذِراً لامـــرئ قـــد هـــامَ في
وعـــاذلاً لمحـــب البـــدوِ والقَفـــرِ
أَتـــذْمُمَنَّ[2] بيوتـــاً خـــفَّ محملُهـــا
وتمـــدَحنَّ بيـــوت الطّـــين والحَجَـــرِ
لو كُنتَ تَعلمُ مـا في البـدو تعـذرني
لكـنْ جَهِلـتَ وكـم في الجهـلِ مـن ضررِ

=(وهـــو أن بعـــض أمـــراء الفرنســـية تـــذاكروا في الحضـــارة والبـــدو، فبعضهم فضـل الحضـارة، وبعضـهم فضـل البادية ثـم اتفقـوا عـلى أن يحكمـوا الأمـير فـيما بينهم لأنـه مِمَّـنْ سـكن الحضـارة والبـدو، فحكـم لمفضل البادية، وأجابه بهذه القصيدة). انظر: تحفة الزائر 3/ 17.

(1) قـام محمـد مطيـع الحـافظ بنشـر هـذه القصـيدة في مجلـة آفـاق الثقافـة والـــتراث، العـــدد الأول، ص/ 97- 100/ اعـــتماداً عـــلى وثيقـــة مخطوطـة بخـط الأمـير أحمـد أخـي الأمـير عبـد القـادر، وقـد ذكرهـا أيضاً الأمير محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه: (تحفة الزائر).

(2) في ت: (لا تذمن).

أو كنــتَ أصــبحت في الصــحرا تمــرُّ
بســاطِ رمــلِ بــه الحصــباء كالــدُّرَرِ
أو جُلــــتَ في روضـــــة قـــد راق
بكــل لــونٍ جميــلِ طيــبٍ[2] عَطِــرِ
تستنشــقنَّ نســيماً طــاب مُنْتَشَــقاً
يزيــدُ في الــرُّوح لم يَمْــرُرْ عــلى قَــذرِ
أو كنـــت في صـــبح ليـــلِ هـــاجَ
علـــوتَ في مَرقَـــبٍ وجُلْـــتَ
رأيــتَ في كــل وجــه مــن بســائِطها
سرباً مــن الــوحشِ يرعــى أطيــبَ الشــجرِ
فيــا لهــا وَقْفــةٌ لم تُبــق مــن حَــزَنٍ
في قلــبِ مُضــنىً ولا كــدٍّ لــذي ضَــجَرِ
نُباكرُ الصيدَ وقــت الفجــر[5] نَبْغتُــهُ
فالصيد منّــا مــدى الأوقــاتِ في ذُعــرِ

---

(1) في ت: (في الصحراء مرتقباً).

(2) في ت: (شيق).

(3) الهاتن؛ السحاب، مادة القاموس (ه ت ن).

(4) في ت: (أوجلت).

(5) في ت: (أحياناً فنبغته).

فكـم ظلمنـا ظَلـيماً[1] مـع نَعامَتِـهِ
وإن يكـنْ طـائراً في الجـو كالصَـقرِ
يـوم الرحيـل إذا شُـدّت هوادجُنـا
شـقائقٌ عمَّهـا مُـزْنٌ مـن المطـرِ
فيهـا العـذارى وفيهـا قـد[2] جعلـن
مُرقَّعـاتٍ بـأعينٍ مـن الحَـور[3]
تمشـي الحُـداة لهـا مـن خلفهـا
أشـهى مـن النـاي والسّـنطير[4]
ونحن فـوق جيـاد الخيـل نركُضُـها
شـليلُها زينـةُ الأكفـالِ والخَصـر
نطارد الـوحش والغـزلان نلحقُهـا
عـلى البِعـاد ومـا تنجـو مـن الضـمرِ
نـروح للحـي لـيلاً بعـدما نزلـوا
منـازلاً مـا بهـا لطـخٌ مـن الـوَضر[5]

---

(1) الظليم: ذكر الناقة.

(2) الاستدراك من ت.

(3) في ت: (بأحداق).

(4) السـنطير والسـنطور؛ آلـة موسـيقية تشـبه القـانون، أوتارهـا مـن النحاس، مولد (القاموس الوسيط: س ن ط).

(5) الوضر: الدنس.

ترابها المسك بل أنقى وجاد بها
صوبُ الغمائم بالآصال والبُكُرِ
نلفي[1] الخيام بها صفت مبانيها
صارت بها الأرض كالسماء بالزُّهُرِ
قال الألى قد مضَوا قولاً وصَدَّقَهُ
نقل وعقل وما للحق من غِيرِ
الحسنُ يظهرُ في شيئين[2] رونقُهُ
بيتٌ من الشعر أو بيت من الشَّعَر
أموالنا[3] إذ تروح بالعشي
أصواتها كدويِّ الرعد بالسحر
سفائن البر بل أنجى لراكبها
سفائن البحر كم فيها من الخطر

---

(1) في ت:

نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت
مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

(2) في ت: (بيتين).

(3) في ت: (أنعامنا إن أتت عند العشي تخل...).

لنـــا المهـــاري[1] كـــما المـــها
بهـــا وبالخيـــل نلنـــا كـــل مفتخـــرِ
وخيلنـا دائـماً للحـرب مُسـرجَةٌ
من اســتغاث بنـا بشــره بـالوطرِ[2]
بعنـــا الحضـــارة بيعـــاً لا نراجعـــه
بالعـز والعـــز مـا ينـــال بالحضـــر[3]
نحـن الملـوك فـلا تعـدل بنـا أحـداً
وأي عـيشٍ لمـن قـد بـات في خَفَـرِ
لا نحمـل الضـيم ممـن جـار نتركـه
وأرضَـــه وجميـــعُ العـــزِّ في الســـفر
وإن أســـاءَ علينـــا الجـــار عِشـــرتَه
نبـــين عنـــه بـــلا ضـــر ولا ضـــررِ
ما في[4] البداوةِ مـن عيـبٍ تُـذمُّ بـه
إلا المـــروءةَ والإحســـانَ بالبِـــدَرِ[5]

---

(1) في ت: (وما للريم سرعتها).

(2) في ت: (بالظفر).

(3) سقط البيت من ت.

(4) جاء ترتيب البيت مختلفاً عن ت.

(5) البِدَر: جمع بِدْرة: كيس النقود.

تبيــت نــارُ القِــرى تبــدو لطارقنــا
فيها المداواةُ مـن جـوع ومـن خَصــر[1]
عــدونا مــا لــه ملجــا ولا وَزَرٌ
وعنــدنا عاديــاتُ السَّــبقِ والظفــرِ
شرابُهــا مــن حليــب مــا يخالطُــهُ
مــاء ولــيس حليــبُ النــوق كــالبقرِ
أمــوال أعــدائنا في كــل آونــةٍّ
نحــن نُقَســمها[2] بالعــدل والقَــدَر
وصِــحّةُ الجِســمِ فيهــا غــير خَافيــةٍ
وكل عيــبٍ وداءٍ فهــو في الحضــر[3]
منــا الــذي لم يمــت بــالطعن[4] عــاش
فــنحنُ أطــولُ خلــقِ الله في العُمُــرِ

(1) الخَصر: البَرْد في أطراف الأصابع.

(2) في ت: (نقضي بقسمتها).

(3) في ت: (والعيب والداء مقصور على الحضر).

(4) في ت: (من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى).

السلطان العثماني عبد المجيد يقبل دخول الأمير لمملكته

ثم إن ملك الدولة الفرنسية نابليون لما تمت له المملكة على دولته، لم يبق له معارض، اختار تسريح الأمير ليوفيَ له بالشرط الذي كان اشترط الأمير على دولته، حين تسليم نفسه إليهم، خشية أن تبقى دولته مذمومة بإخلافها الوعد، ونقضها العهد، ويخلد ذلك في كتب التواريخ، كما فعلت دولة إسبانيا مع أهل الأندلس، فإن ملكها نقض في مدة يسيرة عهده، وأبقى فعله القبيح مسطراً إلى انتهاء الأبد.

ثم استأذن نابليون الدولة المصرية في قبولها دخول الأمير لمملكتها، فأبى واليها محمد علي باشا ذلك.

فاستأذن نابليون شوكة السلطان عبد المجيد خان في قبوله دخول الأمير لمملكته، فأذن له في ذلك، فبعثه إليه ليجعله تحت مراقبته، وليكون كالكفيل له.

وبعد أن قبل حضرة السلطان دخوله لمملكته استحسن نابليون أن يفرِّق بينه وبين إخوته، فأخذهم من

إمبـــواز إلى الجزائـــر، وأســـكنهم مدينـــة بونـــة لـــيجعلهم كـالمرهونين، ويبقـيهم فيهـا قطعـاً لألسـنة أربـاب دولتـه وتأمينـاً لهم، وتسكيناً لأفئدتهم كـي لا يحصـل لهـم مـن الأمـير أدنـى نكـد أو تشويش مـع وجـود إخوتـه تحـت قبضـتهم، وحسـماً لمـا تعطيـه أفكـارهم مـن كـون الأمـير لا يصـبر عـن العـود إلى وطنـه ومحـل إمارته وعزّه، وأنـه بمجـرد خروجـه للـبلاد الإسـلامية يرجـع إلى الجزائر، وكانت أفكاره هو غير أفكارهم.

ولم يلبـث الأمـير بعـد تفرقـة إخوتـه إلا ثلاثـة أشـهر وجاءه ملـك فرنسـا نـابليون ومعـه وزيـره إلى محلـه، وهـو بـذلك القصـــر بقريـة إمبـواز[1]، وأعطـاه ورقـة تســريحه بيـده، حيـث إنه لم يسمع من جميع وزرائه وأربـاب دولتـه أدنـى إنكـار عليـه لمـا فعلـه مـن تســريح إخوتـه إلى الإقلـيم الجزائـري، ولا سـمع في جرنـال[2] (صـحيفة) إنكـار ذلـك عليـه في مـدة تلـك الشـهور الثلاثة.

(1) في الأصل: (انبواز).

(2) تعني الصحافة.

مغادرته باريز إلى الآستانة

وكان تسريح الأمير إلى الآستانة سنة 1269هـ، وقبل خروجه من باريز عاصمة ملكهم حلَّفه نابليون على المصحف الشريف على أنه لا ينقض العهد ويحارب الدولة الفرنسية مدة حياته، ولا يرجع إلى الإقليم الجزائري أصلاً، ثم أهداه سيفاً مجوهراً وقال له: ما أظن أنك ترجع إلينا وتضربنا بسيفنا، فأجابه الأمير بقوله: وهل بعد الإحسان يفعل فيه أدنى مروءة أو كمال عقل ورتب له نابليون في السنة خمسة آلاف ليرة على أن تصرف له مشاهرة. ثم ودعه وسافر إلى الآستانة في مراكب[1] حربية.

ومرَّ في طريقه على جزيرة صقلية من بلاد الطليان[2]، وذهب إلى المحل الذي تنبع فيه النار من أراضيها، وشاهد في ذلك من وافر قدرة المولى ما يبهر العقول، ورأى النار تَقذف بالصخرة العظيمة، فتُصعدُها إلى جو السماء، ثم تسقط على

(1) في الأصل: (مركب).

(2) في الأصل: (الطاليان).

الأرض وتصير رماداً، وهذه النار كلما مضت من الزمان تتبع في تلك الأرض من محل غير المحل الأول، وتبقى فيه شهوراً، ثم تنبع من غيره وهكذا.

ثم لما قضى وطره من مشاهدة هذه الآية الباهرة سافر إلى أن وصل إلى بلفاز الآستانة، فأبقوه ثلاثة أيام لأجل انتظار الإذن لتلك المراكب الحربية في الدخول إلى البلفاز، فأُذن لها في الدخول، فدخلت، فلما أرست بمرسى الآستانة أطلقت عدة مدافع إعلاناً بقدومه، فقوبلت بمثلها ثم دخلها، وذلك نهار الجمعة سابع عشري ربيع الأول سنة 1269هـ، فاحتفل به غاية الاحتفال، واجتمع بحضرة السلطان عبد المجيد، فرحب به، وأكرم نُزُلَهُ.

سكنه في بروسة

ثم قال له: إننا قد اخترنا لك أن تسكن في مدينة بروسة من مملكتنا، فتوجه إليها، ووصلها نهار الاثنين سابع ربيع الثاني من السنة المذكورة، وسكنها محترماً معظماً بها لدى الخاص والعام إلى أن وقعت بها زلازل هائلة خرّبت معظمها.

سكنه دمشق

فحينئذ طلب الأمير الانتقال منها إلى دمشق الشام، فأذن له، فتوجه إليها، ودخلها في العشرين من ربيع الأول سنة 1272هـ بأهله وخدمه وحشمه، واتخذها دار إقامة.

ولما دخلها أطلقت من قلعتها عدة مدافع إعلاماً بقدومه واستبشاراً، وأقام بها على غاية ما يكون من العز والاحترام عند الخاص والعام، تقصده الوفود من جميع الأقطار، وتتزاحم على رحابه أقدام العلماء والأشراف والفضلاء، والأكابر وأرباب الحاجات، فيكرم الجميع، وينزل كل إنسان منزلته، ومُدح بقصائد لو جمعت لبلغت مجلداً، وكان يجيز على الشعر الجوائز العظيمة، ويعرف للشعراء حقهم، ويعظمهم، وكان له الجاه العظيم عند جميع الملوك، يحمي الذمار، وينصر المظلوم مِمَّنْ بَغَى عليه.

وجاز شمساً[1] في كل ملأ قمراً نيّراً في سماء العلى، ذا نفس زكية وأخلاق هاشمية رضية، جزيل الصدقات، عظيم

(1) في الأصل: (وجاز شمساً)، ولعلها: وصار شمساً.

الإحسان والمبرات، فارساً شجاعاً ليثاً في الهيجاء، موئلاً عظيماً لمن إليه أوى والتجأ.

زيارته القدس والخليل

ثم في سنة 1273هـ توجه لزيارة بيت المقدس والخليل.

ثم رجع إلى دمشق، وأقبل على قراءة الكتب الحديثية كالبخاري ومسلم.

استخلاصه دار الحديث الأشرفية من المغتصبين

وكان قسم من دار الحديث [الأشرفية] قد استولى عليه بعض الأجانب، فسعى في استخلاصه منه، ببذل أموال طائلة[1].

(1) للتوسع في هذه القضية انظر كتابنا (دار الحديث الأشرفية) دار الفكر – دمشق.

حادثة سنة 1860م المعروفة بطوشة النصارى

وفي سنة 1277هـ وقعت الواقعة المشهورة بدمشق، وهي حادثة فوق العادة، فبذل الأمير جهده في إسعاف المسيحيين قياماً بما يوجبه أمر الدين ولشجاعته وحسن تدبيره تيسر إنقاذ ألوف منهم، فأهدته الدولة العلية وسائر الدول العظام علامات الشرف من الدرجة الأولى.

سفره إلى حمص وحجه

ثم سافر إلى حمص وحماه، وزار ما بها من المشاهد، ثم في سنة 1279هـ توجه إلى الحجاز متجرداً لطلب المرشد [الشيخ محمد الفاسي الشاذلي]، وبقي هناك سنة يقيم بمكة تارة، وبالمدينة المنورة تارة، وانقطع ثمة إلى الله كل الانقطاع، واستعمل بمكة المشرفة خلوات[1]، فكان يذهب إلى غار حراء يعتكف به ليالي متعددة.

---

(1) جملة معترضة ليس لها علاقة بالسياق أخرجتها إلى الهامش: (ثم سأل من شريف مكة أن يعطيه جملة من العسكر).

اجتماعه بالشيخ محمد الفاسي وسلوكه عليه

وصادف بمكة العارف بالله تعالى المرشد الناصح الشيخ محمد الفاسي الشاذلي قدس سره، فأخذ عنه الطريقة الشاذلية وانتفع به، وفتح عليه بسببه وبما سلف له من الخلوات قبل ذلك الفتح الكبير الذي [لم] يسمع بمثله في أهل عصره، وأعظم شاهد على ذلك كتابه المسمى بـ(المواقف العرفانية) ففيه ما يبهر العقول، ويحير أفكار الفحول، من الواردات وأسرار التنزلات، وقد بلغ ثلاثة مجلدات[1]، (وكنت[2] نقلتها بخطي تبركاً، وقرأتها على أخص أصحاب الأمير، وهو شيخنا صوفي زمانه، ومرشد أوانه الشيخ محمد بن محمد الخاني النقشبندي حرس المولى وجوده، وهو سمعها مع غيرها من معظم كتب الحقائق كالفتوحات وسواها على حضرة الأمير قدس سره).

(1) طبع أكثر من طبعة في مصر ودمشق وبيروت.

(2) هذا كلام الشيخ جمال الدين القاسمي.

دعوته لزيارة نابليون بباريز

ثم في سنة 1281هـ بعث ملك فرنسا نابليون إلى سعادة بالسفر إلى باريز، فذهب على طريق الآستانة، وواجه حضرة السلطان عبد العزيز خان[1]، فأكرمه وعظمه، وأعطاه أكبر وسام عنده، وسعى في تسريح من نفوا من أكابر دمشق في الواقعة المتقدمة[2]، فأجيب إلى ذلك، وشكر سعيه.

ثم سافر من الآستانة إلى باريز، ففشا الخبر عند جميع الفرنسيين بأن نابليون أتى بالأمير من دمشق ليرجعه إلى وطنه بالجزائر، ويجعله والياً عليها، فلما وصل الأمير إلى باريز جاء لزيارته أحد وزراء الدولة الفرنسية، وأخبره بأن في نية نابليون أن يوليك على الجزائر، فإياك أن تقبل ذلك الآن، لأنك إن قبلت ذلك منه في وقتنا، هذا جعل عليك شروطاً شديدة، واصبر إلى غير هذا الوقت، فإن دولتنا لا بد أن تحتاجك وتوليك عليها بأقل شرط. ولم يعلم هل ذلك من الوزير خديعة، أو نصيحة للأمير، والله أعلم.

---

(1) هو السلطان الذي تلته خلافته السلطان عبد المجيد.

(2) هي واقعة 1860م التي نفي على إثرها عدد من أعيان دمشق.

فلما واجه الأميرُ نابليون قال له: إنني أريد أن أُوَليك الجزائر، فأبى الأميرُ واعتذر له بأنه كبير السن لا يقدر على حمل ثقل التولية والإمارة، فقال له: قد أجبتني بلسانك لا بقلبك، ثم رجع الأمير إلى الشام بعدما حصل له من نهاية التعظيم والإكرام، ثم توجه من باريز إلى لندره[1]، فاحتفلوا به غاية الاحتفال.

ثم عاد إلى الشام، ومن ذلك الوقت قويت المناسبات بينه وبين ملوك أوروبا[2] والرؤساء المشهورين هناك، فكان ذلك وسيلة لقضاء حوائج المسلمين الذين هم في مستعمراتهم، وحصل لهم بذلك من المنافع مالا يوصف.

حضوره افتتاح قناة السويس

ثم في سنة 1286هـ فتحت الدولة الفرنسية خليج السويس، وذلك في عهد إسماعيل باشا والي الديار المصرية، ودعت الدولة الفرنسية ملوك الدول لحضورها زينة فتحه،

(1) المقصود مدينة لندن.

(2) في الأصل: (أوربا).

ومن جملة من دعي لذلك سعادة الأمير، وبعث نابليون زوجته عوضاً عنه، وجاء ملك النامسا (النمسا)، وملك اليونان، وملك بروسيا، وبعث ملك الموسكوف من يقوم مقامه بذلك المحفل، ودخلت تلك الملوك في بوابيرها، وكذا سعادة الأمير في بابور مستقل مثلها، وأول بابور مرَّ فيه بابور زوجة نابليون تعظيماً لها على قاعدة الإفرنج، ثم ملك اليونان لكبر سنه، ثم بقية الملوك المذكورين، وكل بابور عليه علامة وهيئة غير الثاني، ومر الأمير كذلك في بابور على هيئتهم، ووصفهم من غير فرق، ثم عاد إلى محلِّ إقامته مبجلاً معظماً.

تصحيح كتاب الفتوحات المكية اعتماداً على نسخ المؤلف بقونية

وفي سنة 1288هـ أرسل نسخة من الفتوحات المكية مع شيخنا العلامة الشيخ محمد الطنطاوي، وأصحبه الشيخ محمد الطيب ابن الشيخ محمد المبارك المغربي إلى مدينة قونية لمقابلتها وتصحيحها على نسخة موجودة هناك بخط مؤلفها الشيخ الأكبر قدس الله سره، وبعد تصحيحها بكل إتقان عادا إلى دمشق، ثم قرأها الأمير في داره على بعض الخواص من العلماء، فحصل لهم بذلك نفع عظيم.

دعوته لزيارة أمريكا

وكانت ملوك الإفرنج تأتي إلى بيت الأمير في دمشق لتراه، وجاء ملك أمريكا إلى دمشق على جهة السياحة، واجتمع معه في بيته، وحثه كل الحث أن يذهب إلى بلاده لأجل التفرج والتنزه بها، فتعلل له، فقال له: متى أردت ذلك، فابعث لي خبراً لأرسل بابورين ليحملاك وجميع من تحب إلى قطرنا.

فضائله

وبالجملة فكان له من الحظ الديني والدنيوي ما يَكِل القلمُ عن وصفه، وكان قدس الله سره قويَّ الجسمِ، جميلَ الصورةِ، عالماً عارفاً تقياً شاعراً ناثراً، حسنَ الخلق، شارك ذوي المناصب العلية المقتضية للتقدم في سائرها، لم يجتمع في إنسان من أهل عصره، وأهل زمانه ما اجتمع فيه، له الحظ العظيم والرأي المستقيم، صوامٌ قوامٌ، صاحب خلوات ورياضات، حاضر القلب، مع أنه في الجَلوات جاهدَ في الله حق جهاده، وكان نفاعاً للعباد، لا يبخل بجاهه عن أحد، وكان مقبولَ الشفاعة، نافذَ الكلمة.

ومن عجيب ما اتفق له؛ أن امرأة من أهل دمشق جاءته، وأخبرته بأن رجلاً من أهل بخارى اسمه فلان، جاء إلى دمشق وتزوج بها وأَولَدَها ذكراً، ثم إنه ذهب وتركها، ولا تدري أين تَوَجَّهُ، ولم يعطها نفقته، وهي فقيرة، وأخبرته بأن زوجها أخبرها بأن أباه من معتَمَدِي تُجَّارِ بخارى، فانتدب الأمير لتفريج كربها، وكتب بذلك لوكيل بخارى بالآستانة، وهو كتب لوزير بخارى بشأنها، فأحضر الوزير أبا الزوج، والزوجَ وأمره بأنه إما أن يبعث لها ولولدها النفقة، وإما أن يطلقَها ويُكمِلَ لها مهرَها، والنفقةَ، ففعل الزوجُ وطلقَها، وبعث لها ما ذُكِرَ على يديه إلى دمشق، ومثل هذا لم يتفق لغيره.

وبالجملة فقد جمع الله له بين الشرف، والعلم الظاهر والباطن، والمعرفة والتقوى والجمال والغنى والكرم، والشجاعة والقوة والفروسية، وكمال العقل والتأني في الأمور، والحظ الوافر والجاه العظيم.

وفاته

ولم يزل على هذه الأوصاف السنية والأخلاق الرضية إلى أن أتاه اليقين في منتصف ليلة السبت 19 من شهر رجب الفرد، سنة 1300هـ، وذلك في قصره الكائن قرب قرية دمر[1] بعد أن مرض نحو شهر في حصر البول، وكان مشتغلاً في مدة المرض بالمُراقبة والذكر، ولم تبد منه شكوى، وإنما كانت تلوحُ عليه سيما الاستبشارِ بلقاء الله تعالى، والرضا بأحكامه، وقد تولى غسلَه في داره في محلة العمارة بدمشق نزيلُه الشيخُ عبدُ الرحمنِ عليش أحدُ علماء الأزهر، وحمل نعشه على أعناق الرجال إلى الجامع الأموي، وبعد الصلاة عليه شيعه أهلُ دمشقَ بغاية الاحتفال والتعظيم إلى الصالحيةِ، ودفن في تربةِ سلطانِ العارفينِ الشيخِ الأكبرِ محيي الدينِ بنِ عربي لصيق ضريحه[2]، ورُثيَ من سائرِ الجهاتِ بالقصائدِ والمنظوماتِ.

---

(1) بالضواحي الغربية لدمشق.

(2) يقول محمد مطيع: حدثنا أستاذنا أحمد راتب النفاخ أن الذي أشار بدفنه لصيق ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي هو مفتي دمشق الشيخ محمود حمزة نقيب السادة الهاشميين.

ولادته ونشأته

وكانت ولادته في رجب سنة 1223هـ في قيطنة من ضواحي مدينة معسكر من مدن جزائر الغرب، وتربى في ربا الشرف والولاية، وتقوى في مهد التقوى والهداية، ثم حفظ القرآن المجيد، وعكف على تحصيل العلم، وبذل نفسه في المجاهدة، وبمجرد ما حصلت المَلَكة وردت عليه المملكة فاشتغل بها، ومع ذلك لم يُعرض عن العلوم حتى صار يعبر عنه أهل إقليمه بأن رِجله في الركاب، ويدَه في الكتاب، وكان ساحَ مع والده الجليل في بلاد المشرق سنة 1241هـ فوصلا إلى مكة المكرمة، ثم جاءا إلى دمشق صحبةَ ركبِ الحجِ الشامي، وكان عامئذٍ في الركب حضرةُ علامةِ الدنيا ومرشدُها الشيخُ خالدٌ النقشبندي، فاجتمعا عليه في مَعانَ راجعين من مكة، ولما قدما إلى دمشق أخذا منه الإذن في الطريقة النقشبندية، وأدخل والده الرياضة، واختلى في جامع المرادية، المعروف بمحلة السويقة، وكانا نازلين عند أحد وجوه المغاربة بالمحلة المذكورة، ثم توجها إلى بغداد لزيارة الغوث القطب عبد القادر الجيلاني قدس الله سره، ثم

[حجَّا] الحج مرة ثانية، ثم [عادا] إلى بلادهما، إلى أن استولى الفرنسيون على الجزائر، ووقع ما مضى شرحه.

وخلّف رحمه الله عشرةً من البنين، وستاً من البنات، وزوجةً وأربعَ أمهاتِ أولاد.

وكان طيب الله ثراه مربوعَ القامة، معتدلَ الجسم، أبيضَ اللون، أسود الشعر، كثَّ اللحية، أقنى الأنف، أضبطَ؛ أي يعمل بيساره جميع ما يعمله بيمينه، أشهلَ العينين، يمشي الهوينى.

وكانت له مبرات كثيرة من جملتها أنه كان يوزع مئتي ليرة في كل شهر على العلماء والفقراء، فضلاً عما كان ينفقه في وجوه البر، وكان خَرْجُه أكثرَ من دخله الوافر، حيث توفي وعليه ديونٌ اقتضت بيع بعض أملاكه لوفائها، وهذا أكبرُ دليل على وفور كرمه.

وكان يعظم أهل العلم، حسنَ المسامرة، لطيفَ المعاشرة، لا يردُّ سائلاً، ولا يخيب قاصداً، لا ينسى أحداً من الذين تعودوا إحسانه، ولم يكن عنده شيء من الكبر الذي

تنزهت عنه نفسه المطمئنة، ولا يتأنق في الملابس والمطاعم لتحققه بالزهد والتواضع.

وله رحمه الله خلوة في منزله بقرية الأشرفية صحنايا كان يتحنث بها في شهر رمضان مع العزلة التامة.

وله قدس الله سره تآليف مفيدة، أشهرها (المواقف) في التصوف. وتعليق على حاشية لأحد أجداده في علم الكلام، و(المقراض الحاد) و(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، ومن اطلع على هاته المؤلفات عرف قدر فضله، وسعة علمه.

والد الأمير

وكان وفاة والد الأمير السيد محيي الدين سنة 1249هـ عن اثنين وخمسين عاماً، وكان عالماً زاهداً عابداً محدثاً مربياً صوفياً، تشد إليه الرحال ذا أبهة وصولة وعظمة، وقد كساه الله تعالى من الهيبة والعظمة عند أهل إقليم الجزائر ما لم يتفق لغيره.

وكان مقصوداً لقضاء الحوائج الدينية والدنيوية، وناهيك أنه طُلِب أن يتولى الملك لأهل إقليمه لَمَّا استولت

عليه الفرنسيون، ولا زالوا به مدة أربع سنوات[1] وهو يمتنع، ولما رأى الأمر متعيناً عليه أذن لولده الأمير كما ذكرنا فيما تقدم.

وفي هذا القدر من سيرة الأمير كفاية، وإلا فتفصيل سيرته يحتاج إلى مجلدات، أفاض المولى على روضته كواملَ غيوثِ الرحماتِ.

بحمده تعالى قد عُورِض هذا الجزء بأصله،
وتم العِراضُ في رابع شوال سنة 1318هـ.
كتبه جامعه جمال الدين القاسمي.

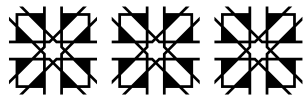

(1) على أنه سلف أن ذكر المصنف أن مدة عرض الولاية عليه استمرت ثلاث سنوات.

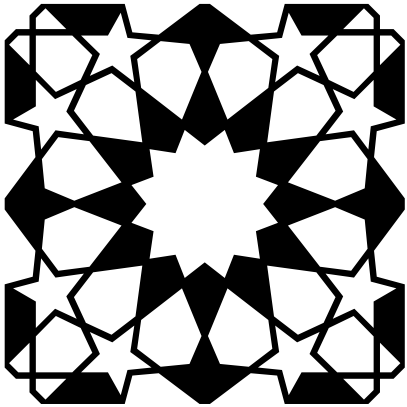

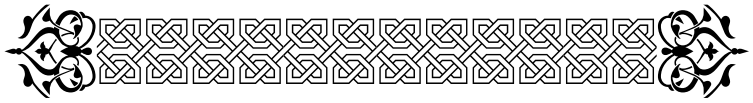

نماذج من مخطوط ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب (نُخبة ما تُسـرُّ به النواظر) -الكتاب التام- تأليف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني، وهي بخط الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه الموسوعي (تعطير المشام)

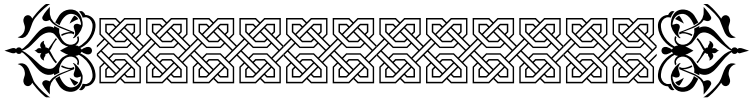

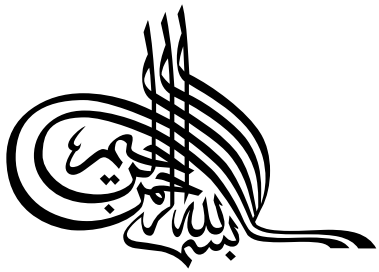
بسم الله الرحمن الرحيم

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

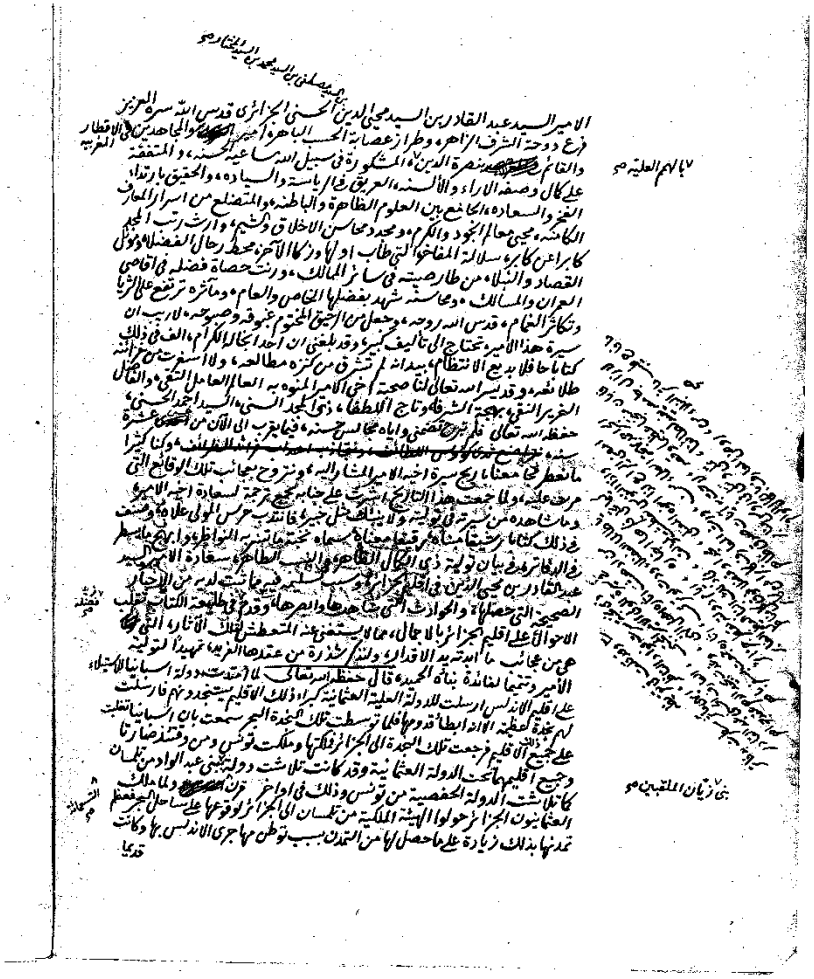

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تسرّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

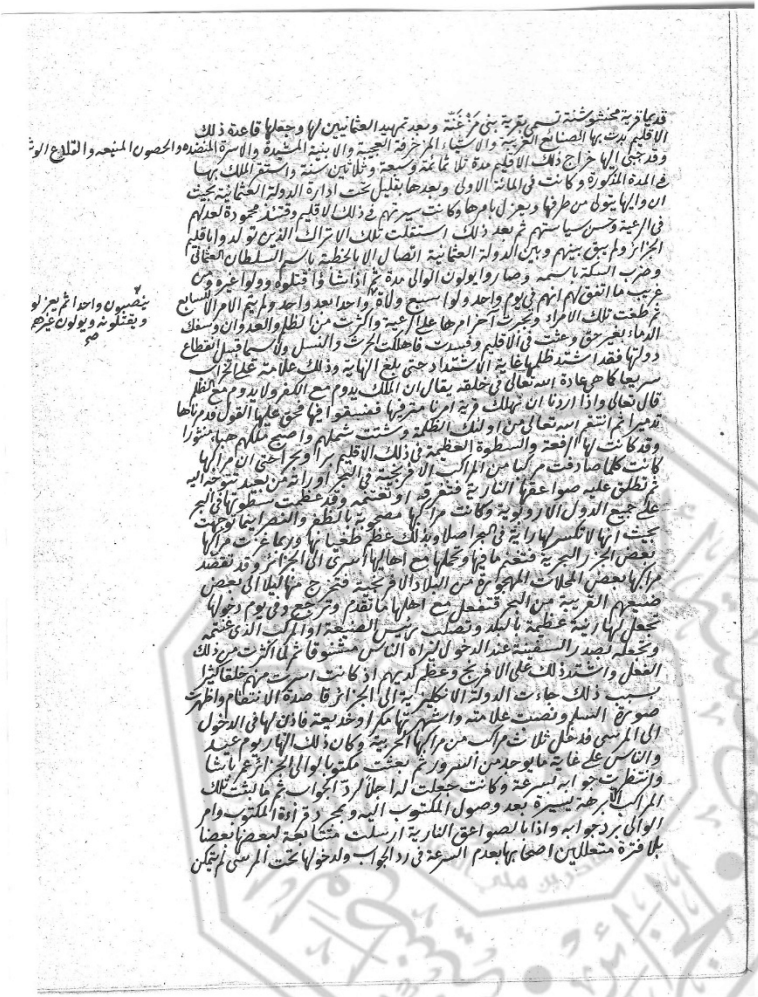

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

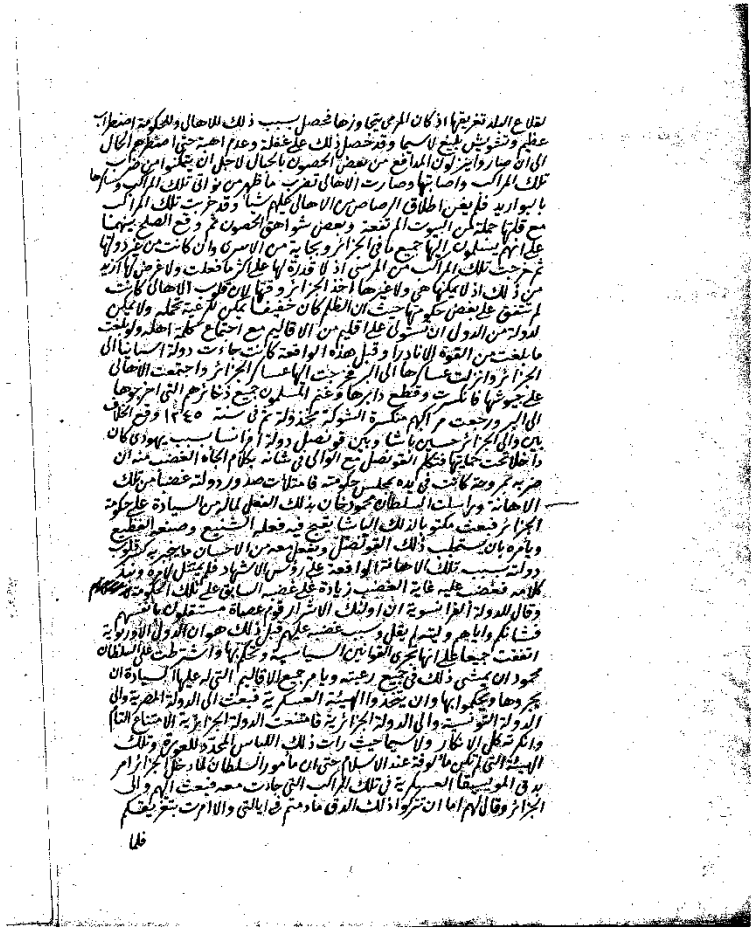

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

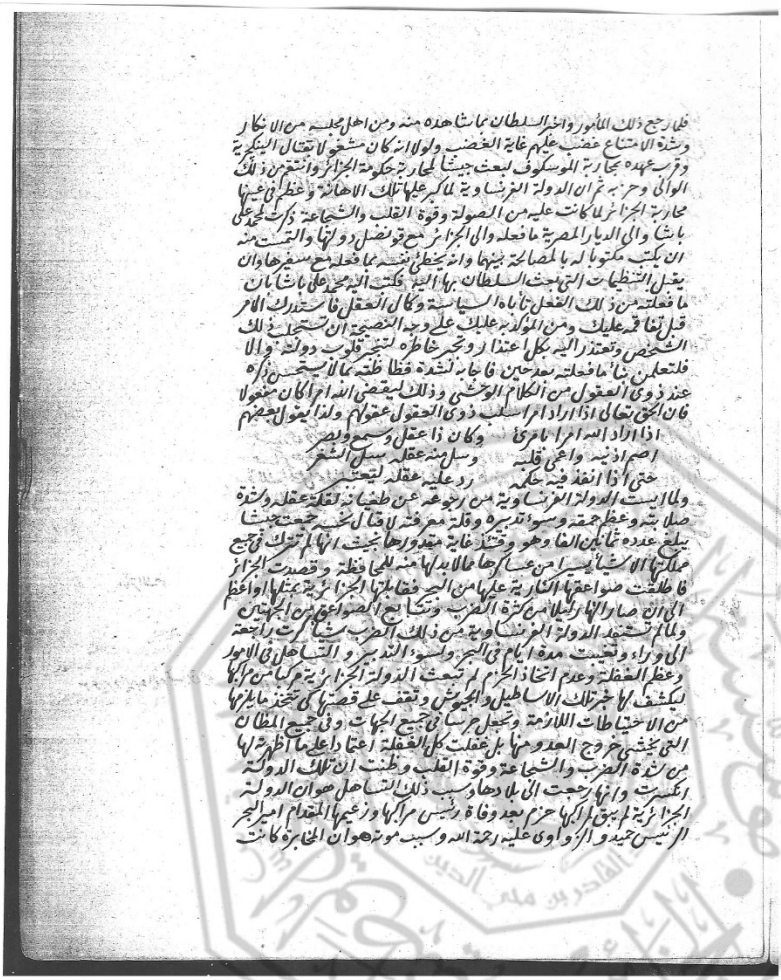

فلما رجع ذلك الأمير واخبر السلطان بما شاهده منه ومن اهل مجلسه من الانكار وشدة الامتناع غضب عليهم غاية الغضب ولولا انه كان مشغولا بقتال النمسكرية وقد سعده بحارية الموسكوف لبعث جيشا لمحاربة حكومة الجزائر وانتقم من ذلك الوالي وحزبه غير ان الدولة الفرنساوية لما كبر عليها تلك الاهانة وعظم في عينها محاربة الجزائر لما كانت عليه من الصولة وقوة القلب والشجاعة ذكرت لمحمد على باشا والي الديار المصرية ما فعله والي الجزائر مع قونصل دولتها والتمست منه ان يكتب مكتوبا له بالمصالحة بينهما وانه يحط عن نفسه ما فعله مع سفيرها وان يقبل التنظيمات التي جاءت السلطان بها اليه فكتب اليه محمد على باشا بان ما فعلته من ذلك الفعل ناشاه السياسة وكان العقل فاستدرك الامر قبل تفاقمه عليك ومن المؤكد عليك على وجه النصيحة ان تستحي من ذلك الشخص وتعتذر اليه بكل اعتذار وتحبر خاطره لتغير قلوب دولته والا فلتعلمن بنا ما فعلته بعد حين فاجابه لشدة فظاظته بما لا يستحسن ذكره عند ذوي العقول من الكلام الوحشي وذلك ليقضي الله امرا كان مفعولا فان الحق تعالى اذا اراد امرا سلب ذوي العقول عقولهم ولذا يقول بعضهم

اذا اراد الله امرا ما مرئ ... وكان ذا عقل وسمع وبصر
اصم اذنيه واعمى قلبه ... وسل منه عقله سل الشعر
حتى اذا انفذ فيه حكمه ... رد عليه عقله ليعتبر

ولما ايست الدولة الفرنساوية من رجوعه عن طغيانه لقلة عقله وشدة صلابته وعظم همته وسوء تدبيره وقلة معرفته لاقبال نحو خمسين جيشا يبلغ عدده ثمانين الفا وهو وحشد غاية مقدورها بحيث انها لم تترك في جميع مملكتها الا شيأ يسيرا من عساكرها مما لابد لها منه للحي فظة وقصدت الجزائر فاطلقت صواعقها النارية عليها من البحر فطاولتها الجزائرية بمثلها او اعظم الى ان صار انها ليلة من كثرة الضرب وتتابع الصواعق من الجهتين ولما لم تستفد الدولة الفرنساوية من ذلك الضرب شيأ رجعت راجعة الى وراء وغيبت معه ايام في البحر ولسوء التدبير والتساهل في الامور وعظم الغفلة وعدم اتخاذ الحزم لم تبعث الدولة الجزائرية مركبا من مركبها ليكشف لها خبر ذلك الاساطيل والجيوش وتقف على قصدها كي تحترز ما يلزمها من الاحتياطات اللازمة وتجعل حرسا في جميع الجهات وفي جميع المطارح التي يخشى خروج العدو منها بل غفلت كل الغفلة اعتمادا على ما اظهرته لها من شدة الضرب والشجاعة وقوة القلب وظنت ان تلك الدولة انكسرت وانها رجعت الى بلادها وسبب ذلك الساهل هو ان الدولة الجزائرية لم يبق لها كبير حزم بعد وفاة رئيس مراكبها وزعيمها المقدام امير البحر الرئيس حميدو الزواوي عليه رحمة الله وسبب موته هو ان المخابرة كانت

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

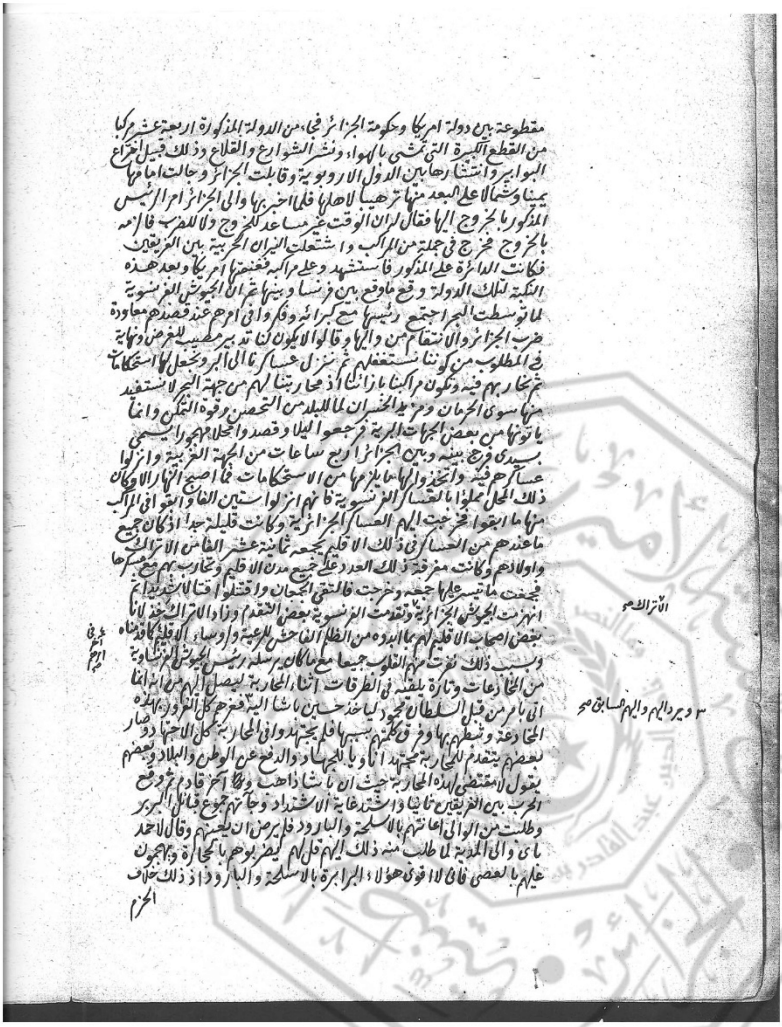

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

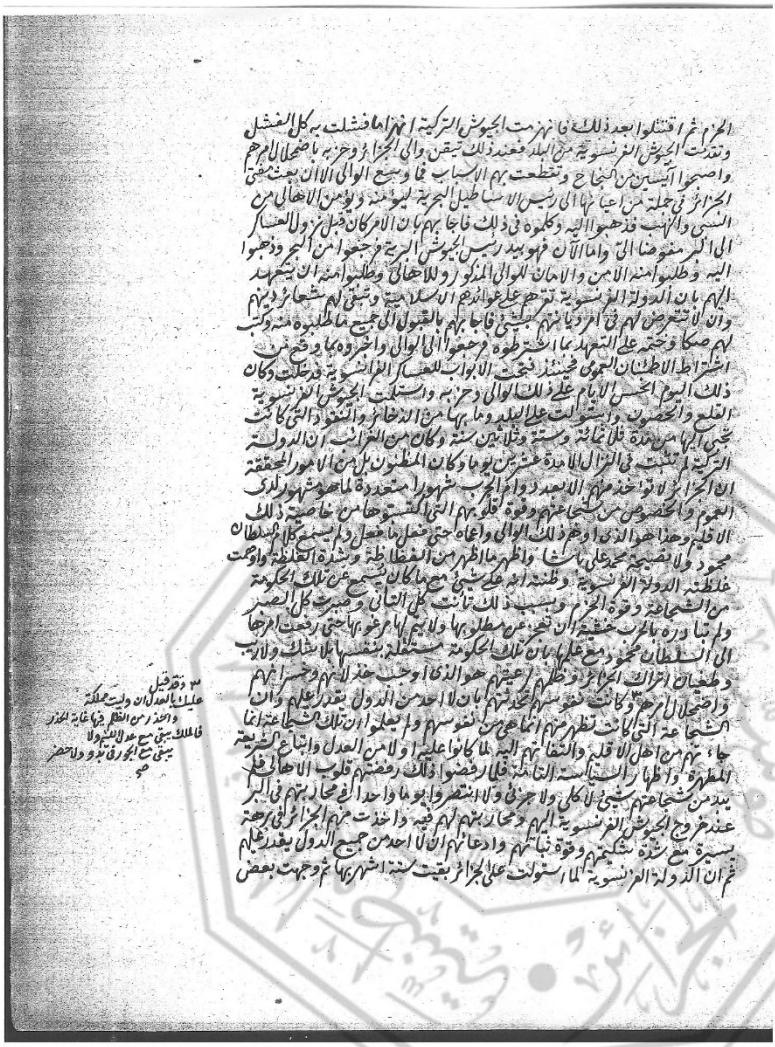

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

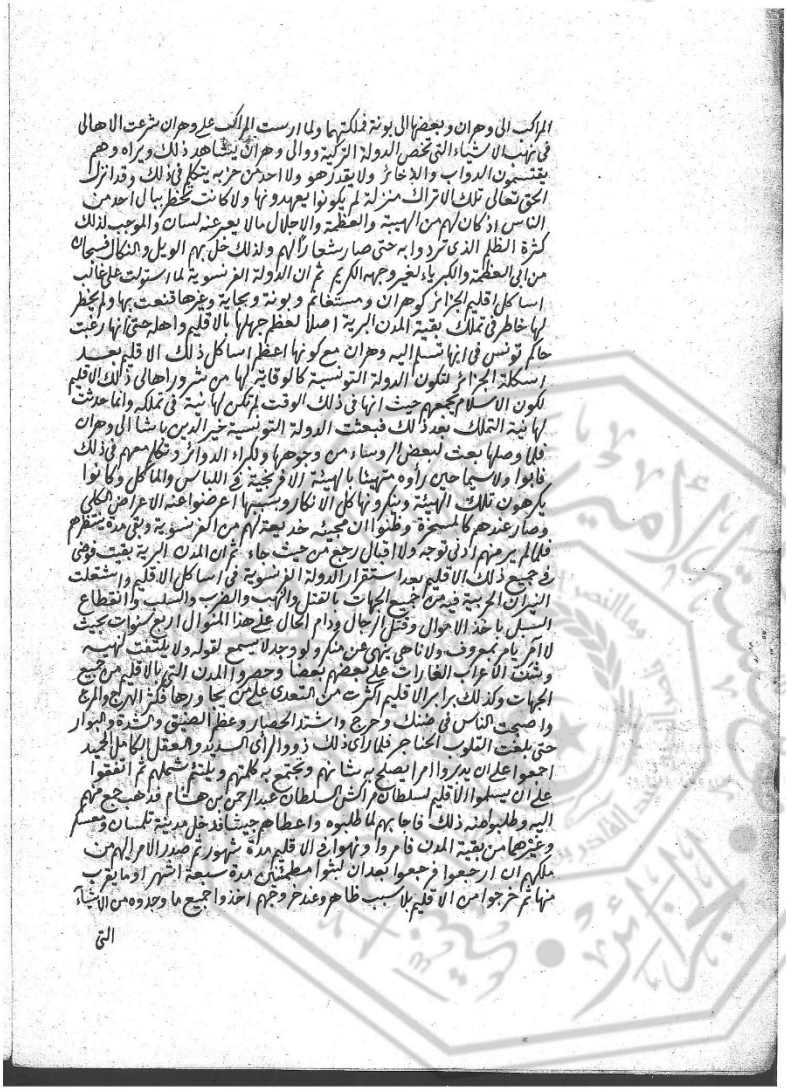

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

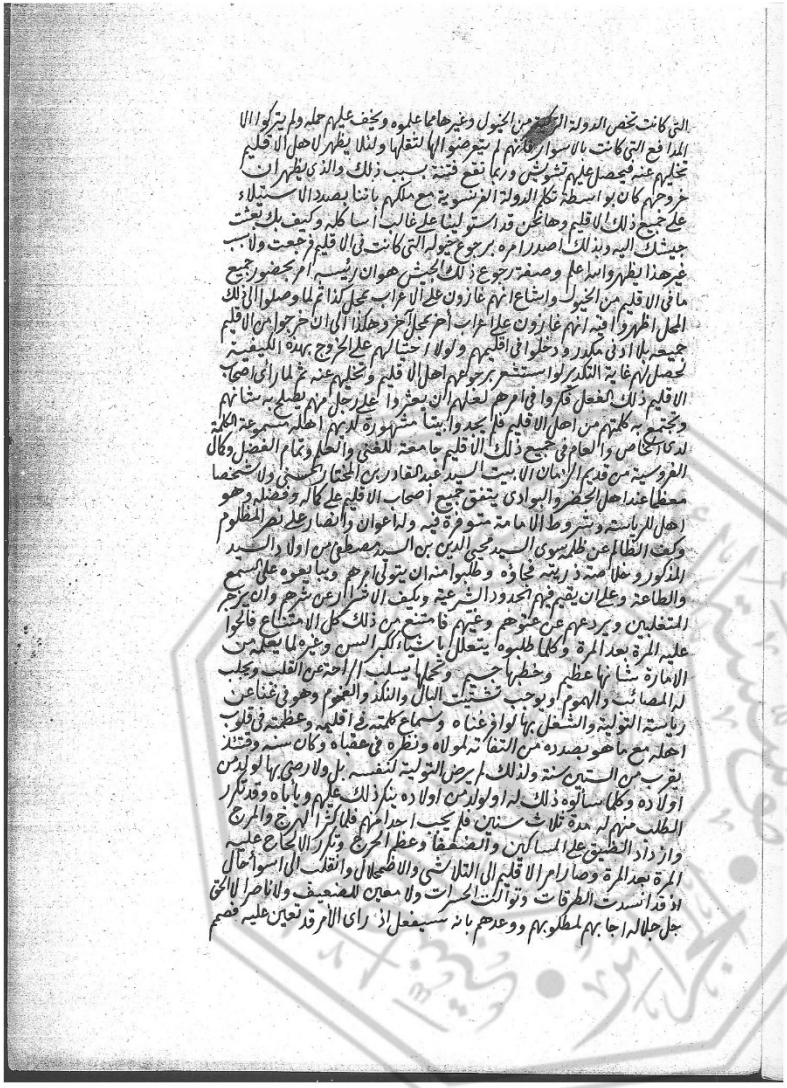

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

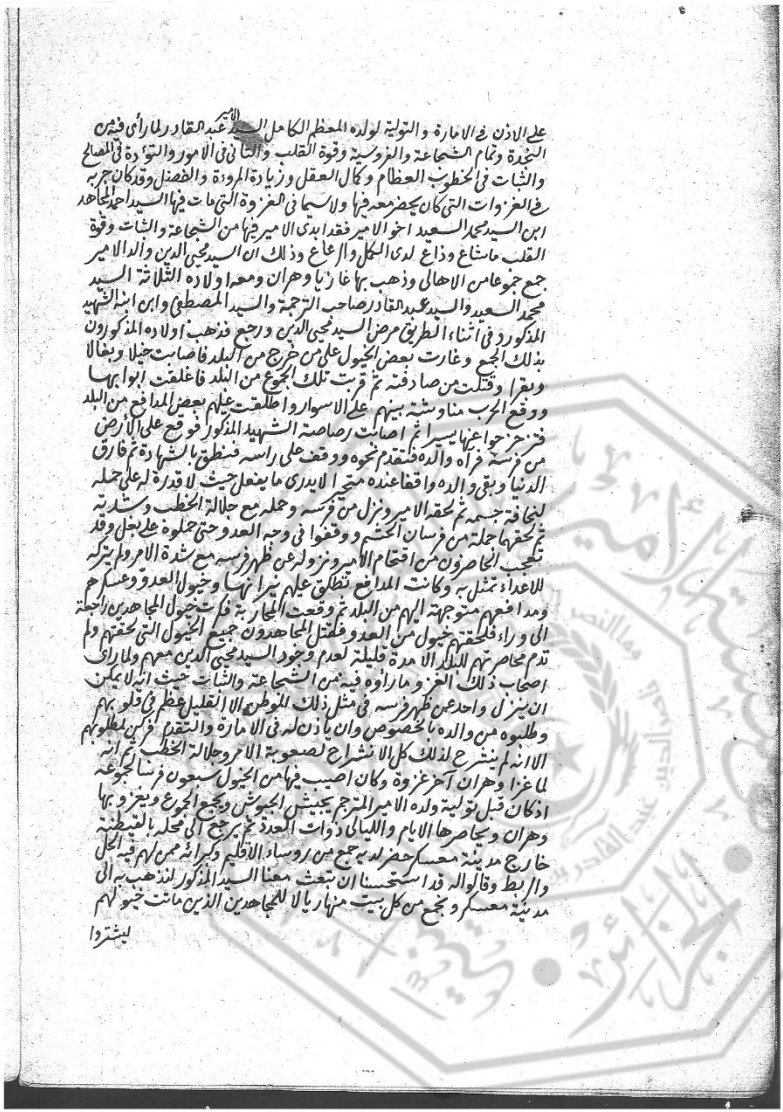

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

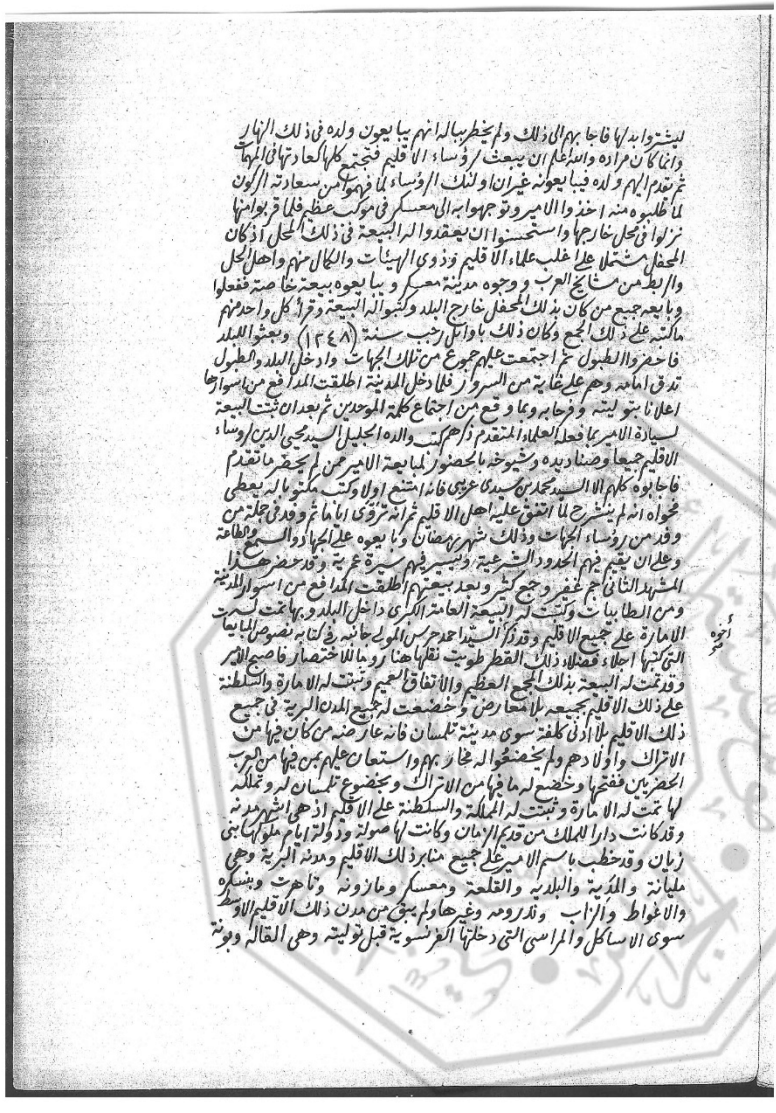

لبيته وابدلها فاجابهم الى ذلك ولم يخطر ببالهم انهم يبايعون ولده في ذلك النهار
وانما كان مراده والله اعلم ان يبعث الرؤساء الاقليم فتجتمع كلها كعادتها في المهمات
ثم تقدم اليهم ولده فيبايعونه غير ان اولئك الرؤساء لما فهموا من سعادته الكون
لما ظلبوه منه اخذوا الامير وتوجهوا به الى معسكر في موكب عظيم فلما قربوا منها
نزلوا في محل خارجها واستحسنوا ان يعقدوا له البيعة في ذلك المحل اذ كان
المحفل مشتملا على اغلب علماء الاقليم وذوي الهيئات والكمال منهم واهل الحل
والربط من مشايخ العرب ووجوه مدينة معسكر وبايعوه بيعة خاصة ففعلوا
وبايعه جميع من كان بذلك المحفل خارج البلد وكتبوا له البيعة وقرأ كل واحد منهم
ما كتبه على ذلك الجمع وكان ذلك باوائل رجب سنة (١٢٤٨) وبعثوا للبلد
فاخضروا الطبول ثم اجتمعت عليهم جموع من تلك الجهات وادخل البلد والطبول
تدق امامه وهم على غاية من السرور فلما دخل المدينة اطلقت المدافع من اسوارها
اعلانا بتوليته وفرحابها وقع من اجتماع كلمة الموحدين ثم بعد ان ثبتت البيعة
لسيادة الامير بما فعله العلماء المتقدم ذكرهم كتب والده الجليل السيد محيي الدين رؤساء
الاقليم جميعا وصنادبره وشيوخه بالحضور لمبايعة الامير ممن لم يحضر ما تقدم
فاجابوه كلهم الا السيد محمد بن سيدي عربي فانه امتنع اولا وكتب مكتوبا له يعطي
فحواه انه لم يشرح لما اتفق عليه اهل الاقليم ثم انه ترقى ايانا ما ثم وفد في جملة من
وفد من رؤساء الجهات وذلك شهر رمضان وبايعوه على الجهاد والسمع والطاعة
وعلى ان يقيم فيهم الحدود الشرعية ويسير فيهم سيرة عربية وقد حضرت هذا
المشهد الثاني جم غفير وجمع كثير وبعد بيعتهم اطلقت المدافع من اسوار المدينة
ومن الطابيات وثبتت له البيعة العامة الكبرى داخل البلد وبها ثبت لسيد
الامارة على جميع الاقليم وقد ذكر السيد احمد حرس المولى جانبه في كتابه نصوص المبايعا
التي كتبها اجلاء فضلاء ذلك القطر طويت نقلها هنا روما للاختصار فاصبح الامر
وقد ثبتت له البيعة بذلك الجمع العظيم والاتفاق العميم وثبتت له الامارة والسلطنة
على ذلك الاقليم بجميعه بلا معارض وخضعت له جميع المدن البرية في جميع
ذلك الاقليم بلا ادنى كلفة سوى مدينة تلمسان فانه عارضه من كان فيها من
الاتراك واولادهم ولم يخضعوا له فحاربهم واستعان عليهم بمن فيها من العرب
الحضريين ففتحها وخضع له ما فيها من الاتراك وبخضوع تلمسان له وتملكه
لها ثبتت له الامارة وثبتت له المملكة والسلطنة على الاقليم اذ هي اشهر مدنه
وقد كانت دارا للملك من قديم الازمان وكانت لها صولة ودولة ايام ملوك بني
زيان وقد خطب باسم الامير على جميع منابر ذلك الاقليم ومدنه البرية وهي
مليانة والمدية والبليدة والقلعة ومعسكر ومازونة وتاهرت وبشكره
والاغواط والزاب وقدرومه وغيرها ولم يبق من مدن ذلك الاقليم الاوسط
سوى الاساكل والمراسي التي دخلتها الفرنسوية قبل توليته وهي القالة وبونة

أخوه
عمر

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

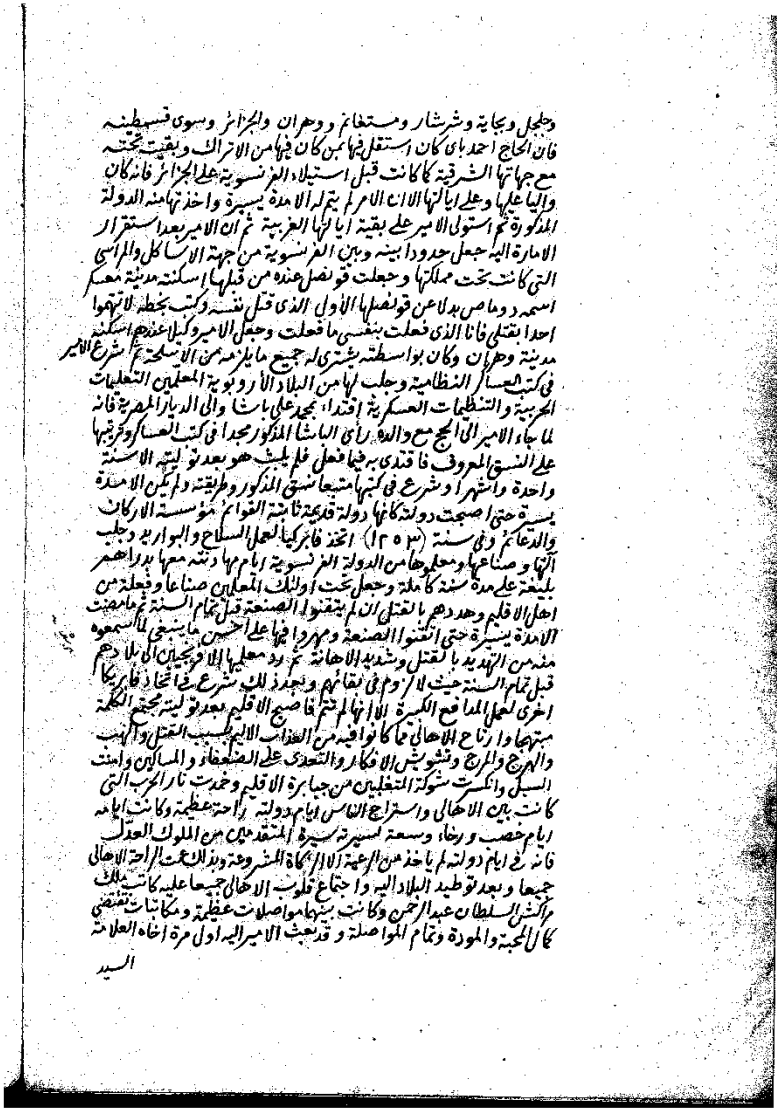

وجيجل وبجاية وشرشار ومستغانم ووهران والجزائر وسوى قسيطينه
فان الحاج احمد باى كان استقل فيها بمن كان فيها من الاتراك وبقيت تحته
مع جهاتها الشرقية كما كانت قبل استيلاء الفرنسوية على الجزائر فانه كان
واليا عليها وعلى ايالتها الاانه لم يتم له الامدة يسيرة واخذتها منه الدولة
المذكورة ثم استولى الامير على بقية ايالتها الغربية ثم ان الامير بعد استقرار
الامارة اليه جعل حدودا بينه وبين الفرنسوية من جهة السواحل والمراسى
التى كانت تحت مملكتها وجعلت قونصل عنده من قبلها اسكنته مدينة معسكر
اسمه دوماص بدلا عن قونصلها الاول الذى قتل نفسه وكتب بخطه لاتهموا
احدا بقتلى فانا الذى فعلت بنفسى ما فعلت وجعل الامير وكيلا عندهم اسكنه
مدينة وهران وكان بواسطته يشترى له جميع مايلزمه من الاسلحة ثم شرع الامير
فى كتب العساكر النظامية وجلب لها من البلاد الاروبية المعلمين التعليمات
الحربية والتنظيمات العسكرية اقتداء بمحمد على باشا والى الديار المصرية فانه
لما جاء الامير الى الحج مع والده رأى الباشا المذكور مجدا فى كتب العساكر وترتيبها
على النسق المعروف فاقتدى به فيما فعل فلم يلبث هو بعد توليته الا سنة
واحدة واشهرا وشرع فى كتبها متبعا نسق المذكور وطريقته ولم يكن الامدة
يسيرة حتى اصبحت دولته كانها دولة قديمة ثابتة القوائم مؤسسة الاركان
والدعائم وفى سنة (١٢٥٣) اتخذ فابريكا لعمل السلاح والبوارد وجلب
آلتها وصناعها ومعلموها من الدولة الفرنسوية ارام منها دشنه معها بدراهم
بليغة على مدة سنة كاملة وجعل تحت اولئك المعلمين صناعا وفعلة من
اهل الاقليم وهددهم بالقتل ان لم يتقنوا الصنعة قبل تمام السنة ثم مامضت
الامدة يسيرة حتى اتقنوا الصنعة ومهروا فيها على احسن مايسبق للاسماعه
منذ من التهديد بالقتل وشديد الاهانة ثم رد معلميها الى اوجيجان الى بلادهم
قبل تمام السنة حيث لا لزوم فى بقائهم وبعد ذلك شرع فى اتخاذ فابريكا
اخرى لعمل المدافع الكبيرة الا انها لم تتم فاصبح الاقليم بعد توليته مجتمع الكلمة
مبتهجا وارتاح الاهالى مما كانوا فيه من العذاب الاليم بسبب القتل والنهب
والهرج والمرج وتشويش الافكار والتعدى على الضعفاء والمساكين وامنت
السبل وانكسرت شوكة المتغلبين من جبابرة الاقليم وخمدت نار الحرب التى
كانت بين الاهالى واستراح الناس ايام دولته راحة عظيمة وكانت ايامه
ايام خصب ورخاء وسعة لسيرته سيرة المتقدمين من الملوك العدل
فانه فى ايام دولته لم يأخذ من الرعية الا الزكاة الشرعية وبذلك عمت الراحة الاهالى
جميعا وبعد توطيد البلاد اليه واجتماع قلوب الاهالى جميعا عليه كاتب ملك
مراكش السلطان عبد الرحمن وكانت بينهما مواصلات عظيمة ومكاتبات تقتضى
كمال المحبة والمودة وتمام المواصلة وقد بعث الامير اليه اول مرة اخاه العلامة
السيد

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

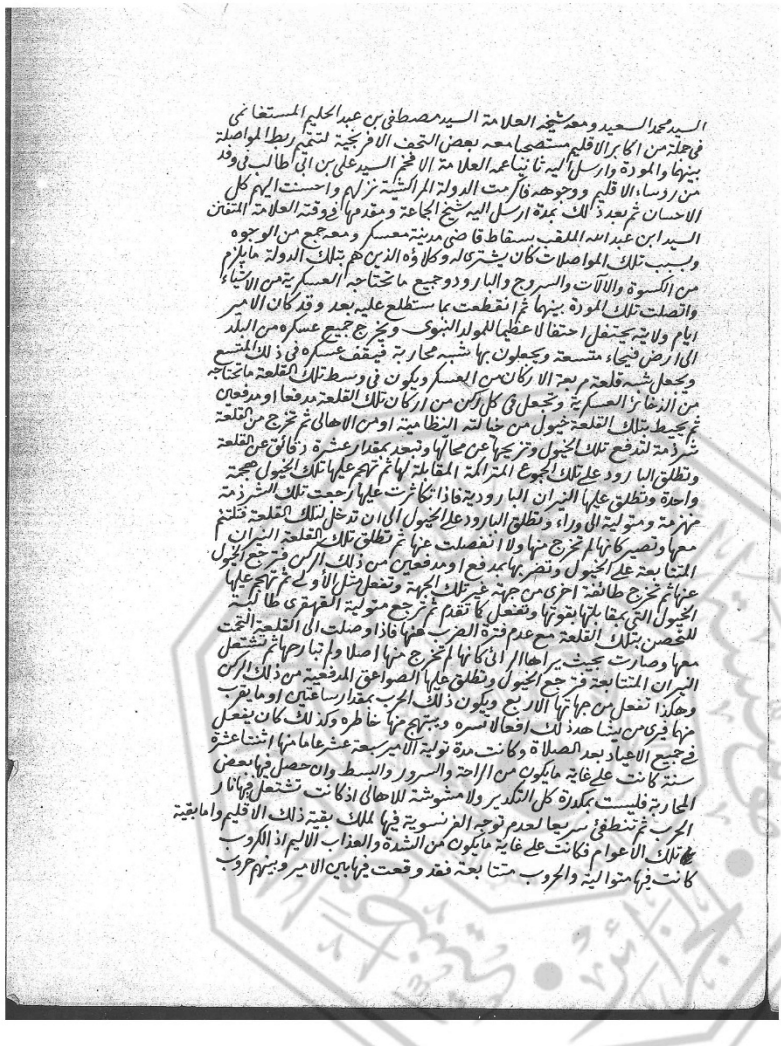

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

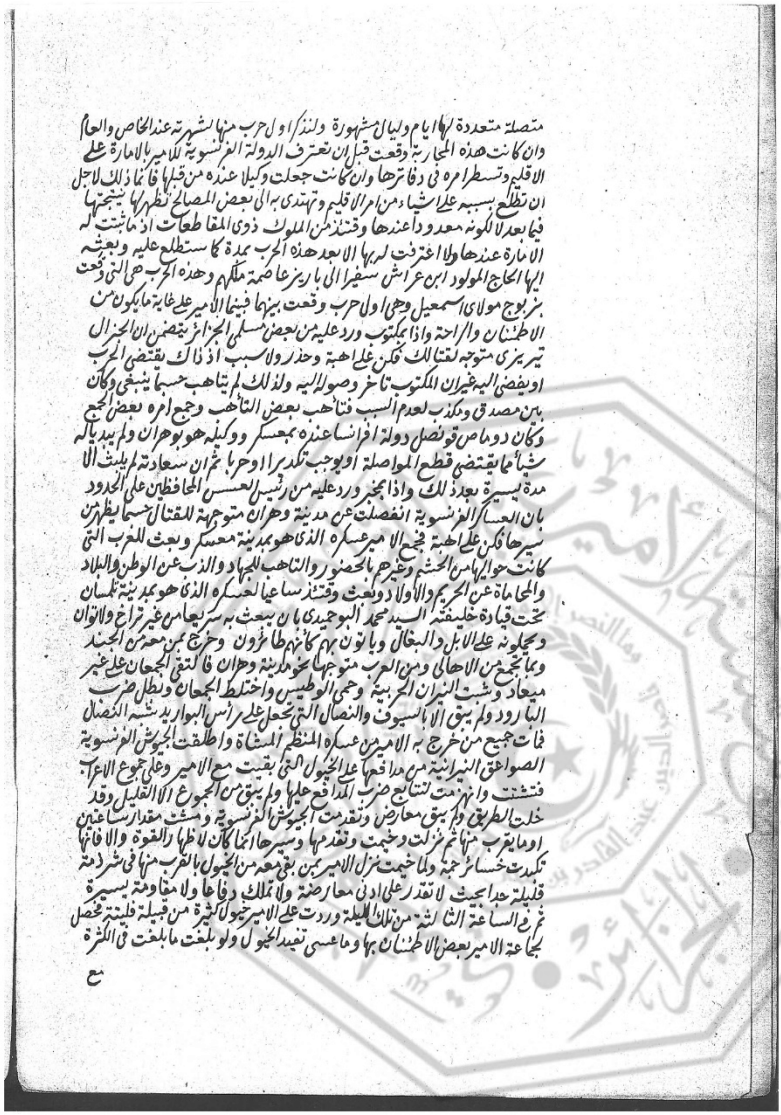

متصلة متعددة بها ايام وليال مشهورة ولنذكر اول حرب منها لشهرتها عند الخاص والعام
وان كانت هذه المحاربة وقعت قبل ان تعترف الدولة الفرنسوية للامير بالامارة على
الاقليم وتسطر امره في دفاترها وان كانت جعلت وكيلا عنده من قبلها فانما ذلك لاجل
ان تطلع بسببه على اشياء من امر الاقليم وتهتدي به الى بعض المصالح نظرا بها تبتغيها
فيما بعد لكونه معدوداً عندها وقتئذ من الملوك ذوي المقاطعات اذ ما ثبت له
الامارة عندها ولا اعترفت لديها الا بعد هذه الحرب بمدة كما ستطلع عليه وبعثه
اليها الحاج المولود ابن عراش سفيراً الى باريز عاصمة ملكهم وهذه الحرب هي التي وقعت
بتريوج مولاي اسمعيل وهي اول حرب وقعت بينهما فيما الامير على غاية ما يكون من
الاطمئنان والراحة واذا بمكتوب ورد عليه من بعض مسلمي الجزائر يتضمن ان الجزال
تيريزي متوجه لقتالك فكن على اهبة وحذر والسبب اذ ذاك يقتضي الحرب
او يفضي اليه غير ان المكتوب تاخر وصوله اليه ولذلك لم يتاهب حسبما ينبغي وكان
بين مصدق وكذب لعدم السبب فتاهب بعض التاهب وجمع امره بعض الجمع
وكان دوماص قونصل دولة افرنسا عنده بمعسكر ووكيله هو بوهران ولم يبد بالله
شيأ مما يقتضي قطع المواصلة او يوجب تكديرا او حرجا ثم ان سعادته لم يلبث الا
مدة يسيرة بعد ذلك واذا بمخبر ورد عليه من رئيس العسس المحافظين على الحدود
بان العساكر الفرنسوية انفصلت عن مدينة وهران متوجهة للقتال حسبما يظهر من
سيرها فكن على اهبة فجمع الامير عسكره الذي هو بمدينة معسكر وبعث للعرب التي
كانت حواليها من الخشم وغيرهم بالحضور والتاهب للجهاد والذب عن الوطن والبلاد
والحماة عن الحريم والاولاد وبعث وقتئذ ساعيا لعسكره الذي هو بمدينة تلمسان
تحت قيادة خليفته السيد محمد البوحيدي بان يبعث به سريعا من غير تراخ والاتوان
ويحملونه على الابل والبغال وياتون بهم كانهم طائرون وخرج بمن معه من الجند
وبما تجمع من الاهالي ومن العرب متوجها نحو مدينة وهران فالتقى الجمعان على عبر
ميعاد وشبت النيران الحربية وحمي الوطيس واختلط الجمعان وبطل ضرب
البارود ولم يبق الا بالسيوف والنصال التي تحمل على رؤس البوارد شبه الدضال
فمات جميع من خرج به الامير من عسكره المنظم للمشاة واطلقت الجيوش الفرنسوية
الصواعق النيرانية من مدافعها على الخيول التي بقيت مع الامير وعلى جموع الاعراب
فتشتت وانهزمت تتتابع ضرب المدافع عليها ولم يبق من الجموع الا القليل وقد
خلت الطريق ولم يبق معارض وتقدمت الجيوش الفرنسوية ومشت مقدار ساعتين
او ما يقرب منها ثم نزلت وخيمت وتقدمها وسيرها انما كان لاظهار القوة والا فانها
تكبدت خسائر جمة ولما خيمت نزل الامير بمن بقي معه من الخيول بالقرب منها في شرذمة
قليلة جدا بحيث لا تقدر على ادنى معارضة ولا تملك دفاعا ولا مقاومة بسيرة
ثم في الساعة الثالثة من تلك الليلة وردت على الامير خيول كثيرة من قبيلة فليتة فحصل
لجماعة الامير بعض الاطمئنان بها وما عسى تفيد الخيول ولو بلغت ما بلغت في الكثرة

مع

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

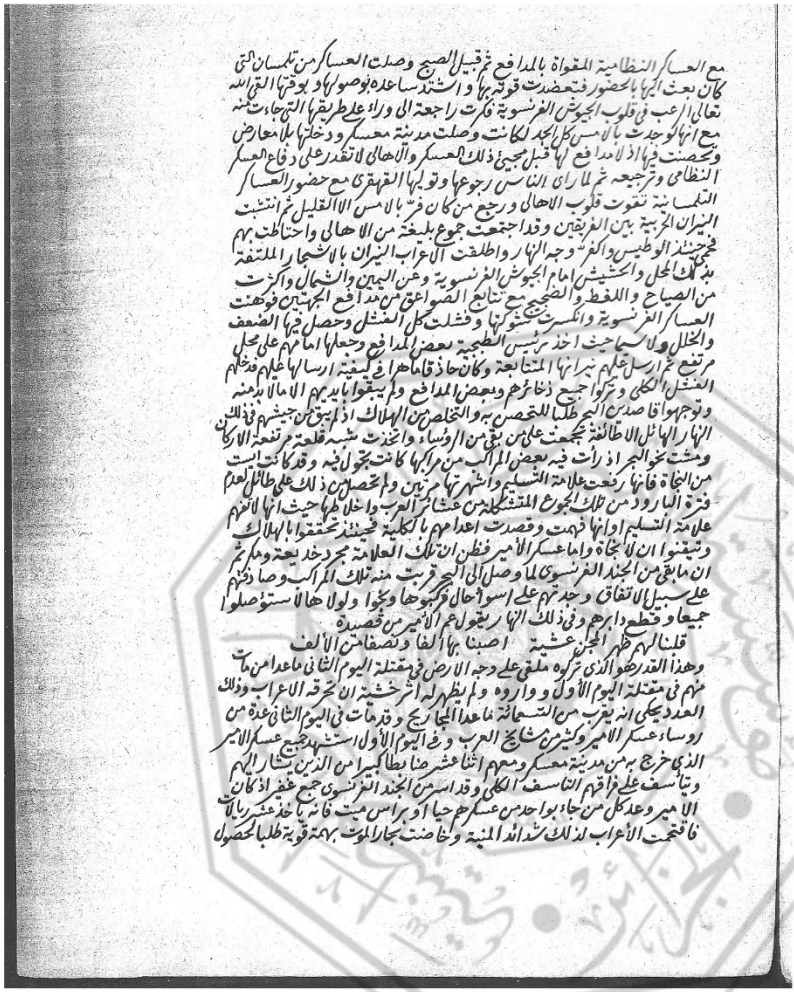

مع العساكر النظامية المقواة بالمدافع ثم قبيل الصبح وصلت العساكر من تلمسان التي
كان بعث اليها بالحضور فتعضدت قوتهما واشتد ساعده بوصولها ويوقرها القوة الله
تعالى الرعب في قلوب الجيوش الفرنسوية فكرت راجعة الى وراء على طريقها التي جاءت منه
مع انها كوجدت بالامس كل الجد لكانت وصلت مدينة معسكر ودخلتها بلا معارض
وتحصنت فيها اذ لا مدافع لها قبل مجيئ ذلك العسكر والاهالي لا تقدر على دفاع العسكر
النظامي وترجيعه ثم لما راى الناس رجوعها وتوليها القهقرى مع حضور العساكر
التلمسانية تقوت قلوب الاهالي ورجع من كان فرّ بالامس الا القليل ثم انتشبت
النيران الحربية بين الفريقين وقد اجتمعت جموع بليغة من الاهالي واحتاطت بهم
فحينئذ الوطيس والكرّ وجه النهار واطلقت الاعراب النيران بالاشجار الملتفة
بذلك المحل والحشيش امام الجيوش الفرنسوية وعن اليمين والشمال واكرت
من الصباح واللغط والضجيج مع تتابع الصواعق من مدافع الجهتين فوهنت
العساكر الفرنسوية وانكسرت شوكتها وفشلت كل الفشل وحصل فيها الضعف
والخلل ولا سيما حيث اخذ رئيس الطبجية بعض المدافع وجعلها امامهم على محل
مرتفع ثم ارسل غلام نيرانها المتتابعة وكان حاذقا ماهرا في كيفية ارسالها غلام فظهم
الفشل الكلي وتركوا جميع ذخائرهم وبعض المدافع ولم يبقوا بايديهم الا ما لا بدّ منه
وتوجهوا قاصدين البحر طلبا للتخلص به والتخلص من الهلاك اذ لم يبق من جيشهم في ذلك
النهار الهائل الا طائفة تجمعت على من بقي من الرؤساء واتخذت شبه قلعة مرتفعة الاركان
ومشت نحو البحر اذ رأت فيه بعض المراكب من مراكبها كانت تجول فيه وقد كانت اتت
من النجاة فانها رفعت علامة التسليم واشهرتها مرارا ولم تحصل من ذلك على طائل لعدم
فتوة البارود من تلك الجوع المتشكلين من عشائر العرب واخلاطها حيث انها لا تفهم
علامة التسليم او انها فهمت وقصدت اعدامهم بالكلية فحينئذ تحققوا بالهلاك
وتيقنوا ان لا نجاة واما عسكر الامير فظن ان تلك العلامة مجرد خديعة ومكر ثم
ان ما بقي من الجند الفرنسوي لما وصل الى البحر قربت منه تلك المراكب وصاد فتهم
على سبيل الاتفاق وجدتهم على اسوأ حال فركبوها وبحوا ولولا ها لا ستوصلوا
جميعا وقطع دابرهم وفي ذلك انها ريقول عم الامير من قصيدة

قلنا لهم ظهر الجنّ عشية اصبنا بها ألفا ونصفا من الألف

وهذا القدر هو الذي تركوه ملقى على وجه الارض في مقتلة اليوم الثاني ما عدا من مات
منهم في مقتلة اليوم الأول وواروه ولم يظهر له اثر خشية ان تحرقه الاعراب وذلك
العدد يمكن انه يقرب من التسعائة ما عدا الجارح وقدمات في اليوم الثاني عدة من
رؤساء عسكر الامير وكثير من شايخ العرب وفي اليوم الأول استشهد جميع عسكر الامير
الذي خرج به من مدينة معسكر ومعهم اثنا عشر ضابطا كبيرا من الذين يشار اليهم
ويتاسف على فراقهم التاسف الكلي وقد اسر من الجند الفرنسوي جمع غفير اذ كان
الامير وعد كل من جاء بواحد من عسكرهم حيا او براس ميت فانه يأخذ عشرة ريالات
فانتهزت الأعراب لذلك شدائد المنية وخاضت بحار الموت بهمة قوية طلبا لحصول

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

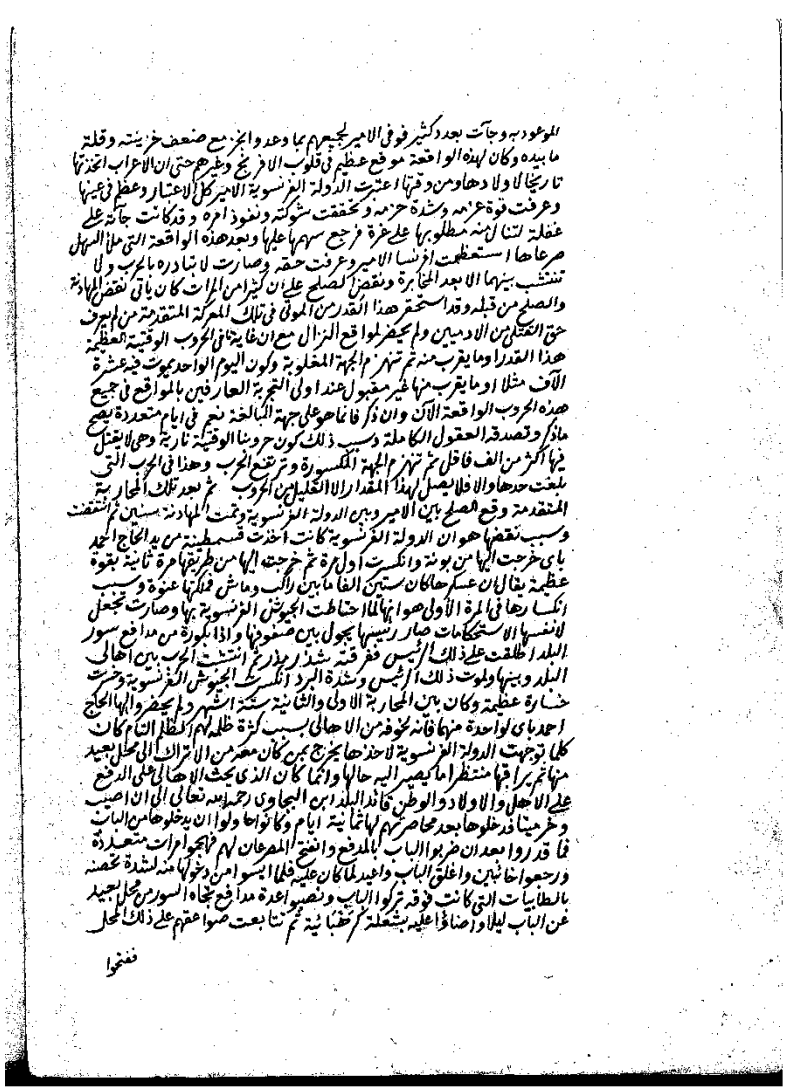

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "تخبة ما تَسَرَّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

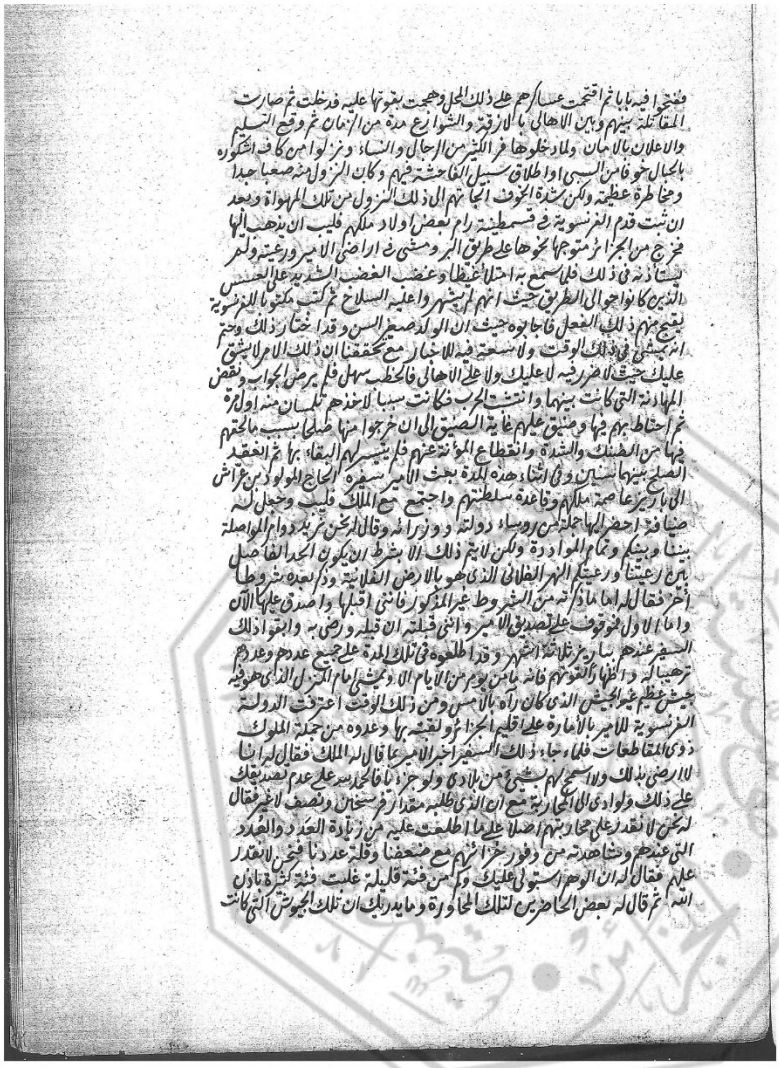

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

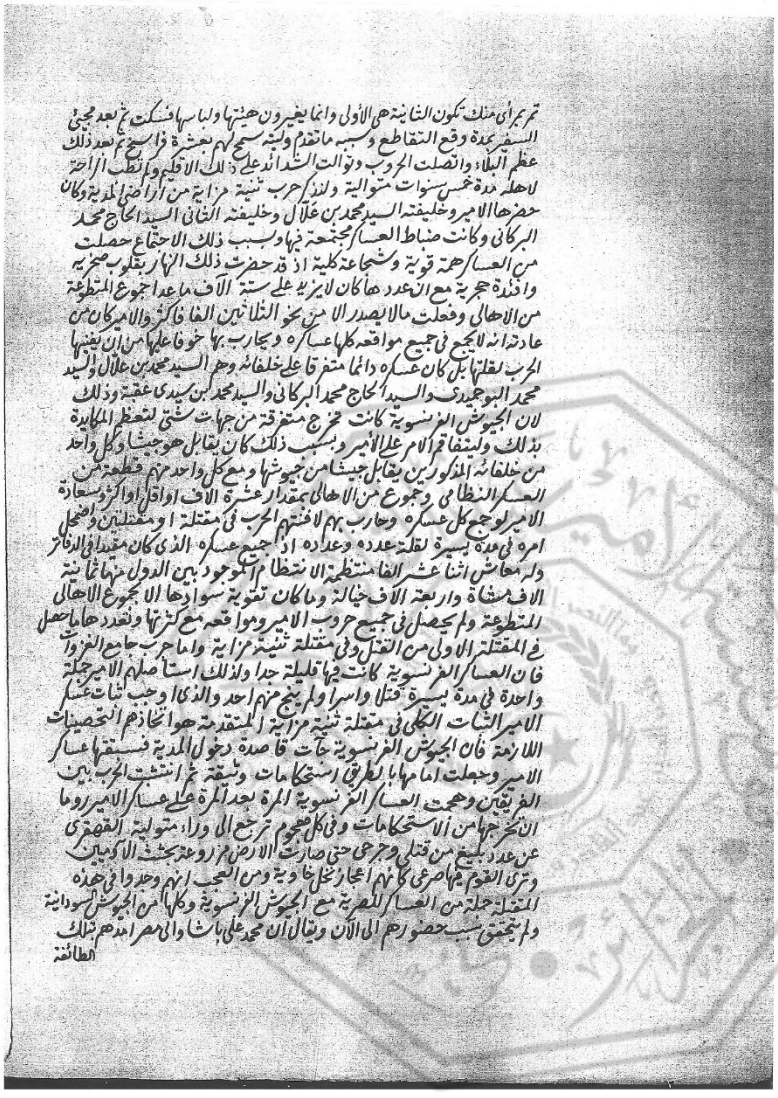

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

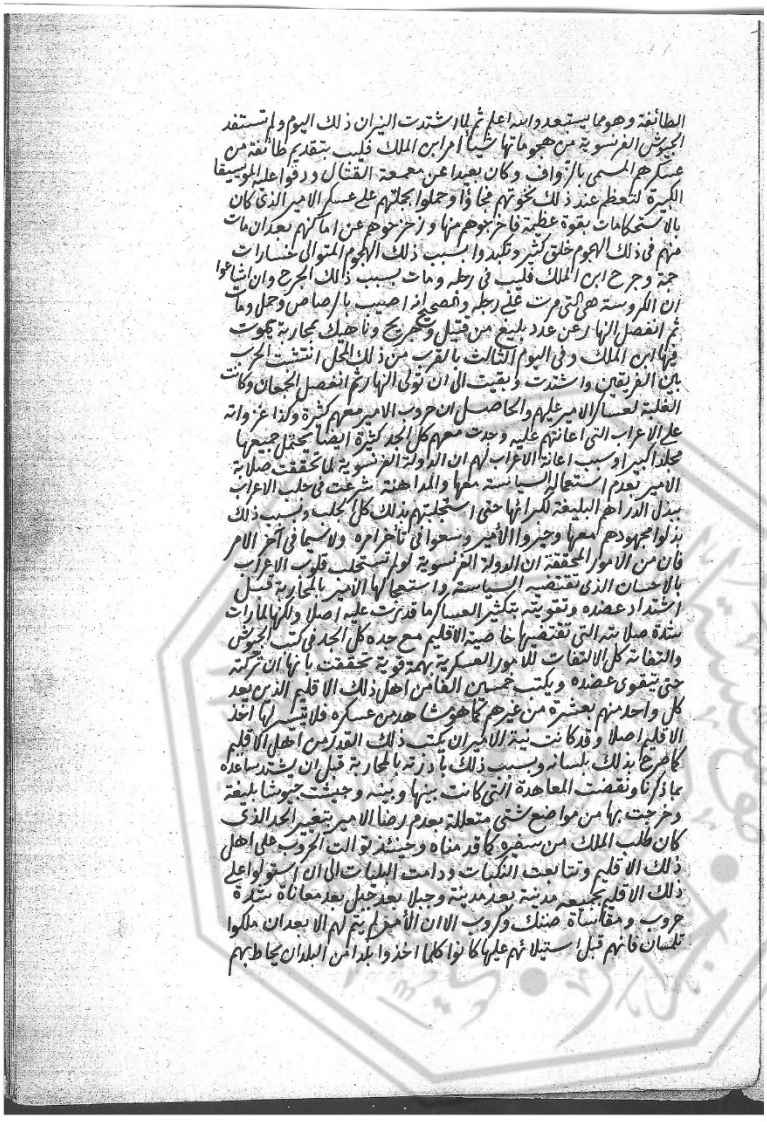

الطائفة وهو مما يستبعد والله اعلم ثم لما اشتدت النيران ذلك اليوم واستفد الجيوش الفرنسوية من هجوماتها شيئا امر ابن الملك فليب بتقديم طائفة من عسكرهم المسمى بالزواف وكان بعيدا عن معمعة القتال ودواعلى الموسيقا الكبيرة لتعظم عند ذلك نخوتهم فجاؤا وحملوا بجلتهم على عسكر الامير الذى كان بالاستحكامات بقوة عظيمة فاخرجوهم منها وزحزحوهم عن اماكنهم بعد ان مات منهم فى ذلك اليوم خلق كثير وتكبدوا بسبب ذلك الهجوم المتوالى خسارات جمة وجرح ابن الملك فليب فى رجله ومات بسبب ذلك الجرح وان اشاعوا ان الكروسته هى التى مرت على رجله وقصوا انه اصيب بالرصاص وحمل ومات ثم انفصل النهار عن عدد بليغ من قتيل وجريح وناهيك بمحاربة يموت فيها ابن الملك وفى اليوم الثالث بالقرب من ذلك المحل انتشبت الحرب بين الفريقين واشتدت وبقيت الى ان تولى النهار ثم انفصل النجلان وكانت الغلبة لعساكر الامير عليهم والحاصل ان حروب الامير معهم كثيرة وكذا غزواته على الاعراب التى اعانتهم عليه وجدت معهم كل الجد كثيرة ايضا تحتمل جميعها مجلدا كبيرا وسبب اعانة الاعراب لهم ان الدولة الفرنسوية لما تحققت صلابة الامير بعدم استمالته السياسة معها والمداهنة شرعت فى جلب الاعراب ببذل الدراهم البليغة الكبرا فيها حتى استجلبتهم بذلك كل الجلب وبسبب ذلك بذلوا مجهودهم معها وجروا الامير وسعوا فى تاخراموره ولاسيما فى آخر الامر فان من الامور المحققة ان الدولة الفرنسوية لو لم تستجلب قلوب الاعراب بالاحسان الذى تقتضيه السياسة واستجلابها الامير بالمحاربة قبل اشتداد عضده وتقويته بتكثير العساكر ما قدرت عليه اصلا ولكانا لها ما رات سدة صلابته التى تقتضيها خاصية الاقليم مع جده كل الجد فى كسب الجيوش والنفاته كل الالتفات للامور العسكرية بهمة قوية تحققت بانها ان تركته حتى يتقوى عضده ويكتب حصين الغمام اهل ذلك الاقليم الذين يعد كل واحد منهم بعشرة من غيرهم كما هو مشاهد من عسكره فلا يقدر لها اخذ الاقليم اصلا وقد كانت نية الامير ان يكتب ذلك القدر من اهل الاقليم كما مر بذلك بلسانه وبسبب ذلك بادرته بالمحاربة قبل ان يشتد ساعده بما ذكرنا ونقضت المعاهدة التى كانت بينها وبينه وجيشت جيوشا بليغة وخرجت بها من مواضع شتى متعللة بعدم رضا الامير بتغيير الحد الذى كان طلب الملك من سفيره كما قد مناه وحينئذ توالت الحروب على اهل ذلك الاقليم وتتابعت النكبات ودامت البليات الى ان استولوا على ذلك الاقليم بجميعه مدينة بعد مدينة وجبلا بعد جبل بعد معاناة شدة حروب ومقاساة ضنك وكروب الا ان الامير لم يتم لهم الا بعد ان ملكوا تلمسان فانهم قبل استيلائهم عليها كانوا كلما اخذوا بلدا من البلدان يحاط بهم

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

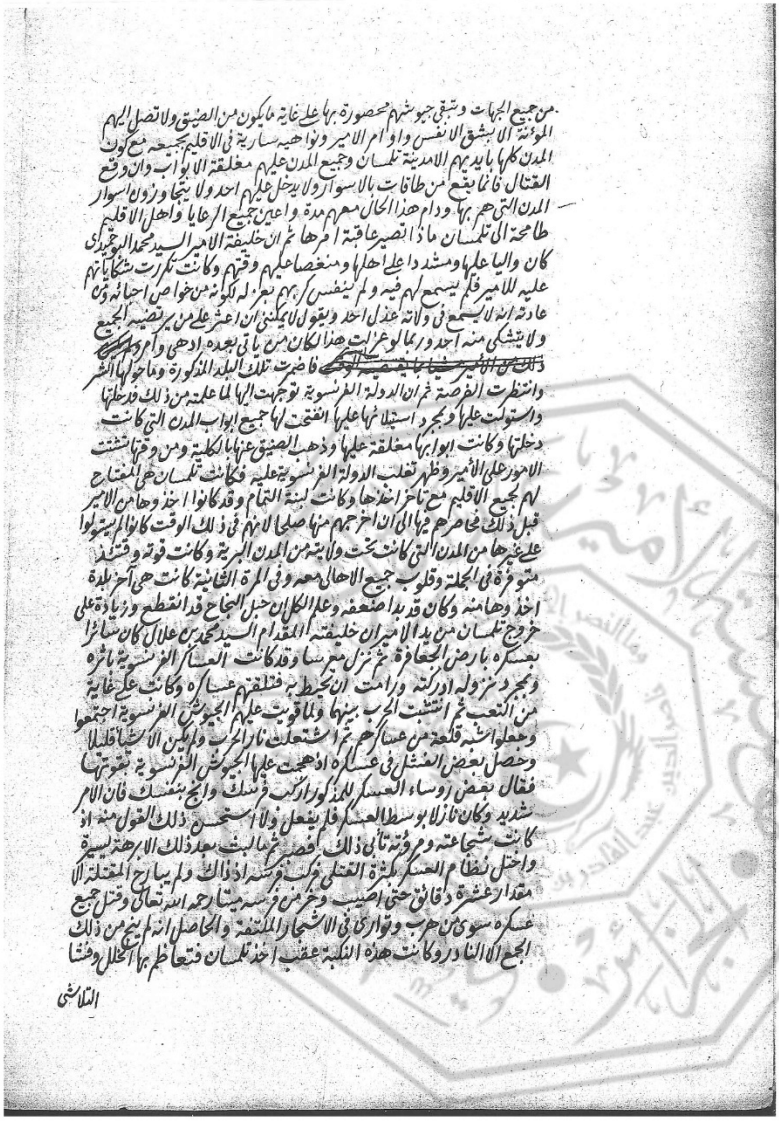

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

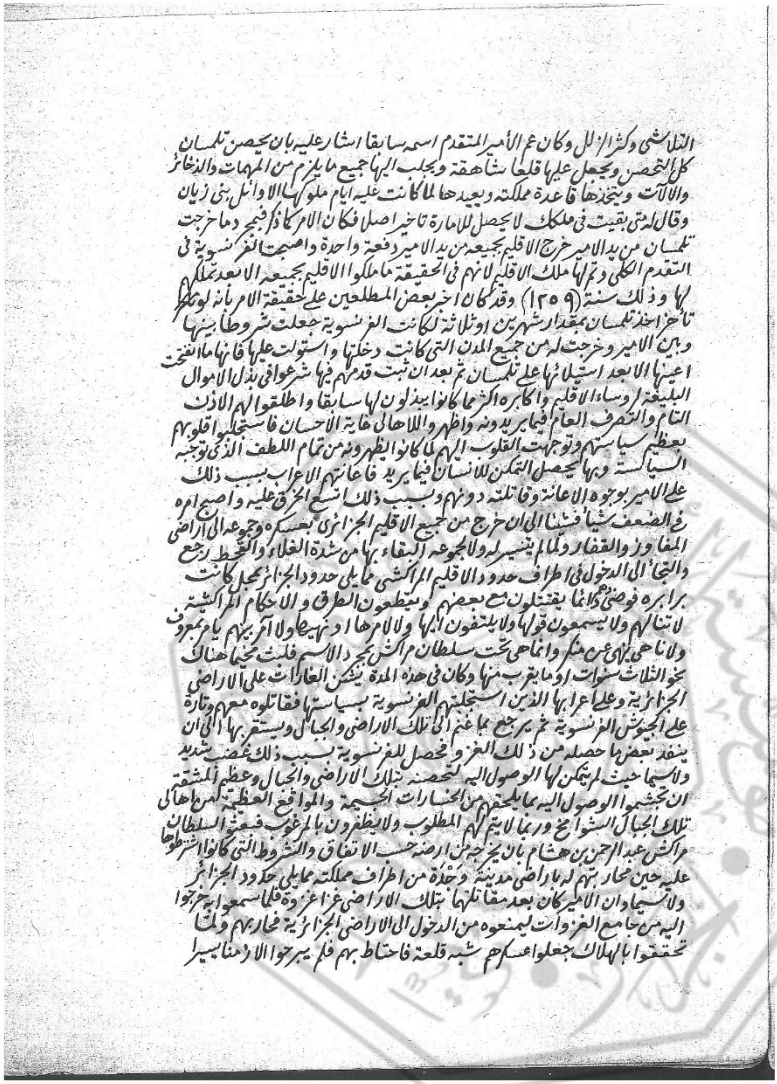

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

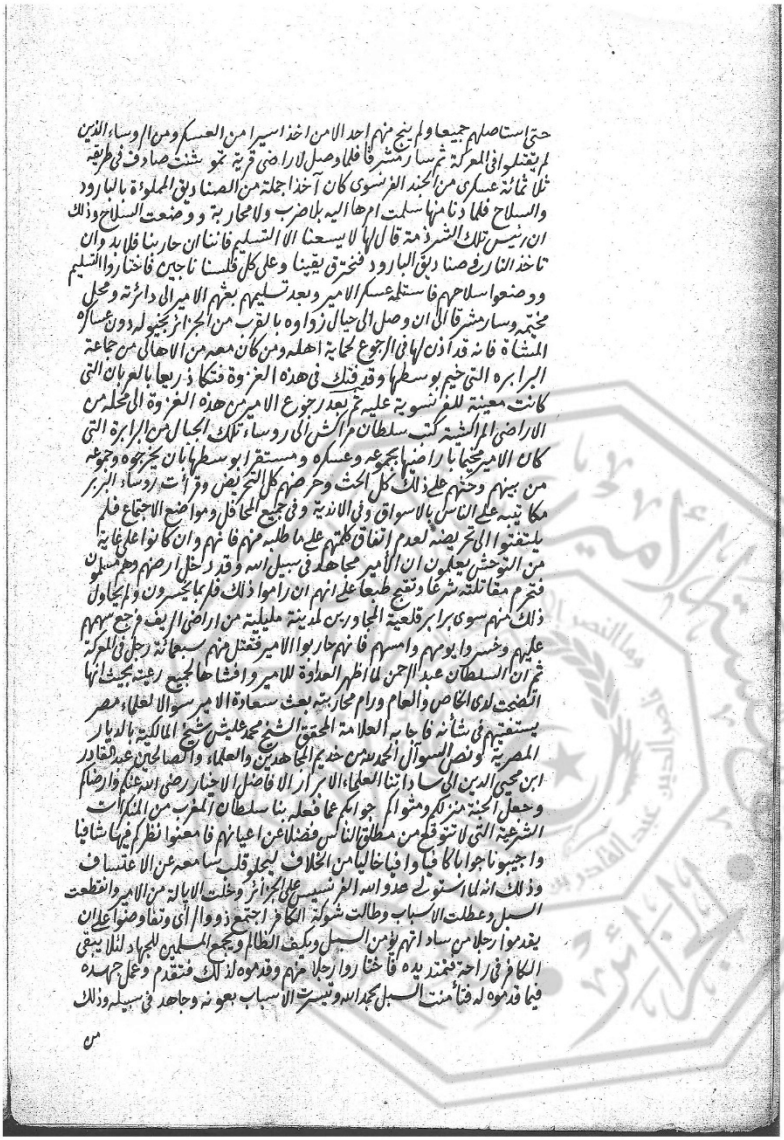

حتى استاصلهم جميعا ولم ينج منهم احد الا من اخذ اسيرا من العسكر ومن الرؤساء الذين
لم يقتلوا في المعركة ثم سار مشرقا فلما وصل الى اراضي قرية تمو شنت صادف في طريقه
ثلاثمائة عسكري من الجند الفرنسوي كان آخذا جملة من الصنا ديق المملوءة بالبارود
والسلاح فلما دنا منها سلمت امرها اليه بلا ضرب ولا محاربة ووضعت السلاح وذلك
ان رئيس تلك الشرذمة قال لها لا يسعنا الا التسليم فاننا ان حاربنا فلا بد وان
تاخذ النار في صنا ديق البارود فنحترق يقينا وعلى كل فلسنا ناجين فاختاروا التسليم
ووضعوا سلاحهم فاستلمه عسكر الامير وبعد تسليمهم بعثهم الامير الى دائرته ومحل
مخيمه وسار مشرقا الى ان وصل الى حيال زواوه بالقرب من الجزائر يخبره دون عساكره
المشاة فانه قد اذن لها في الرجوع لحماية اهله ومن كان معه من الاهالي من جماعة
البرابره التي خيم بوسطها وقد قبل ذلك في هذه الغزوة فتكا ذريعا بالعربان التي
كانت معينة للفرنسويه عليه ثم بعد رجوع الامير من هذه الغزوة الى محل
الاراضي العاصيه كتب سلطان مراكش الى رؤساء تلك الجبال من البرابرة التي
كان الامير مخيما باراضيها بجمعه وعسكره ومستقرا بوسطها بان يخرجوه وجموعه
من بينهم وحتم عليهم ذلك بكل الحث وحرضهم كل التحريض وقرأت رؤساء البربر
مكاتبته على الناس بالاسواق وفي الاندية وفي جميع المحافل ومواضع الاجتماع فلم
يلتفتوا الى تحريضه لعدم اتفاق كلمتهم على ما طلبه منهم فانهم وان كانوا على غاية
من التوحش يعلمون ان الامير مجاهد في سبيل الله وقد دخل ارضهم وهم مسلمون
فتحرم مقاتلته شرعا وتتبع طبعا على انهم ان راموا ذلك فلربما يخسرون وايجاول
ذلك منهم سوى برابر قلعية المجاورين لمدينة مليانة من اراضي الريف ورجع سهم
عليهم وخسروا بعضهم وامسهم فانهم حاربوا الامير فقتل منهم سبعمائة رجل في المعركة
ثم ان السلطان عبد الرحمن لما اظهر العداوة للامير وافشاها لجميع رعيته بحيث انها
اتضحت لذوي الخاص والعام ورام محاربته بعث سعادة الامير سؤالا لعلماء مصر
يستفتيهم في شأنه فاجابه العلامة المحقق الشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالديار
المصرية لونص السؤال احمد من خديم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر
ابن محيي الدين الى ساداتنا العلماء الابرار الافاضل الاخيار رضي الله عنا وارضاكم
وجعل الجنة منزلكم ومثواكم جوابكم عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات
الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس فضلا عن اعيانهم فامعنوا نظركم فيها شافيا
واجيبونا جوابا كافيا وافيا خاليا من الخلاف ليحل قلب سامعه عن الاعتساف
وذلك انه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر وخلت الايالة من الامير وانقطعت
السبل وعطلت الاسباب وطالت شوكة الكافر اجتمع ذوو الرأي ونفاوضوا على ان
يقدموا رجلا من ساداتهم يؤمن السبل ويكيف الظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى
الكافر في راحة فيمتد يده فاختاروا رجلا مزهرا وقدموه لذلك فتقدم وعمل جهده
فيما قدموه له فتأمنت السبل بحمد الله وتيسرت الاسباب بعونه وجاهد في سبيله وذلك

من

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

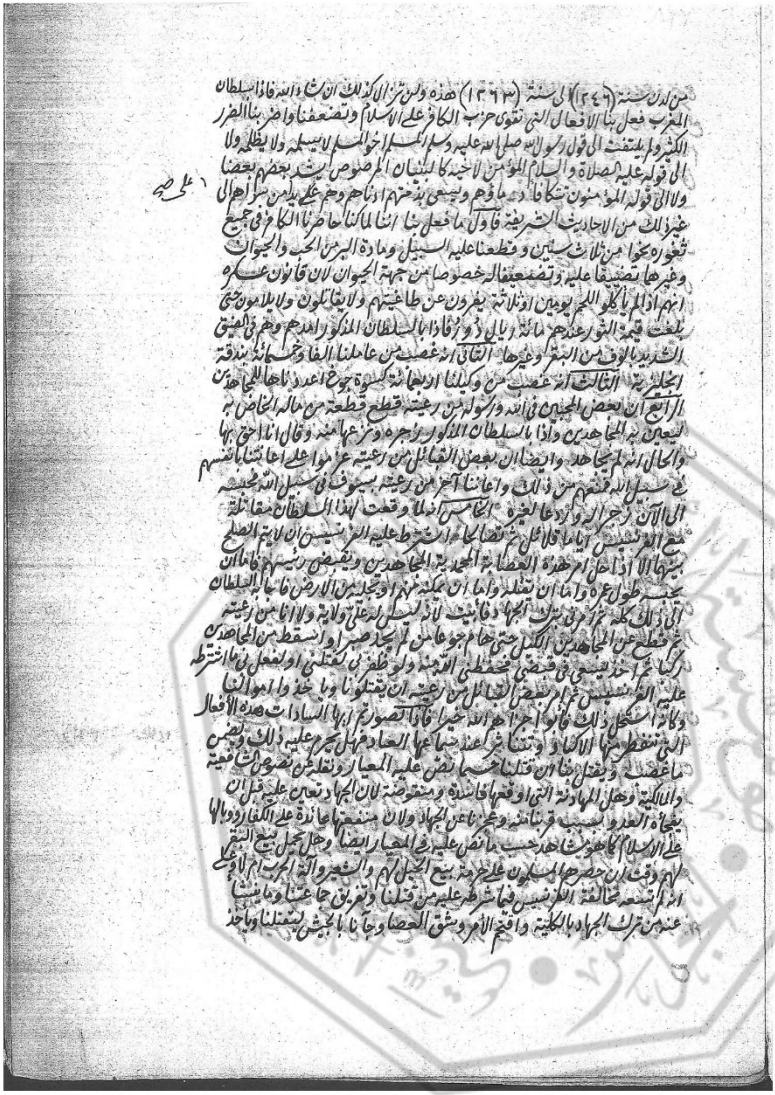

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

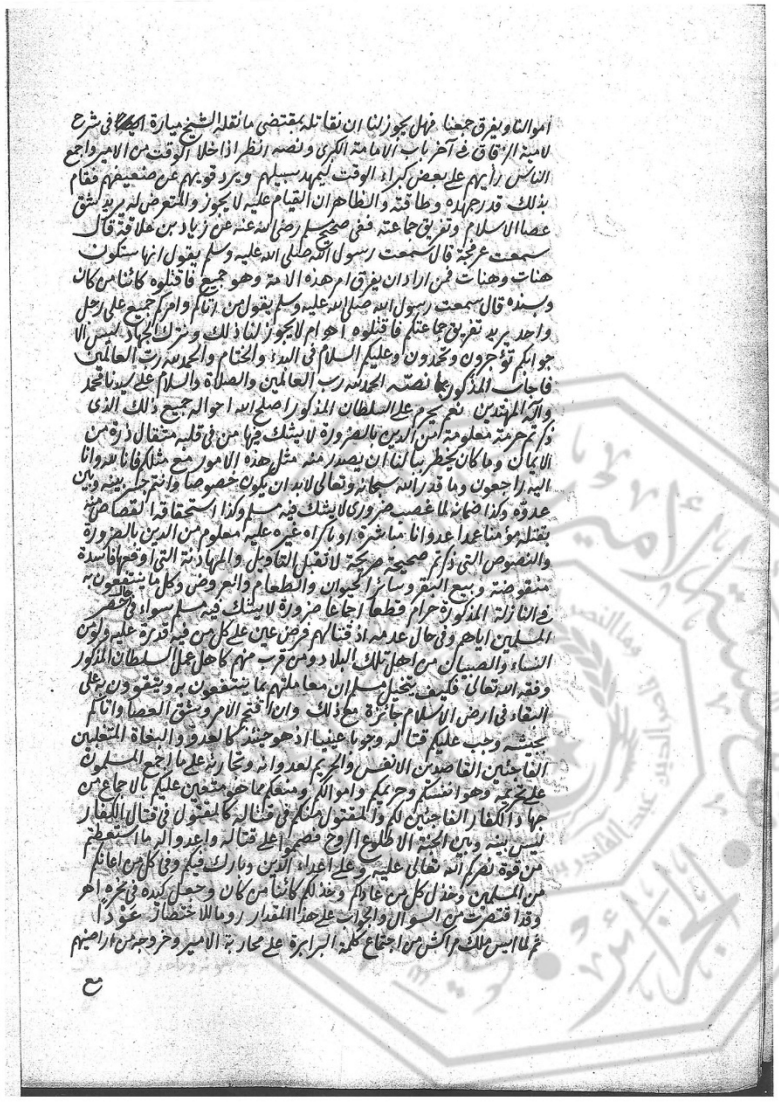

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

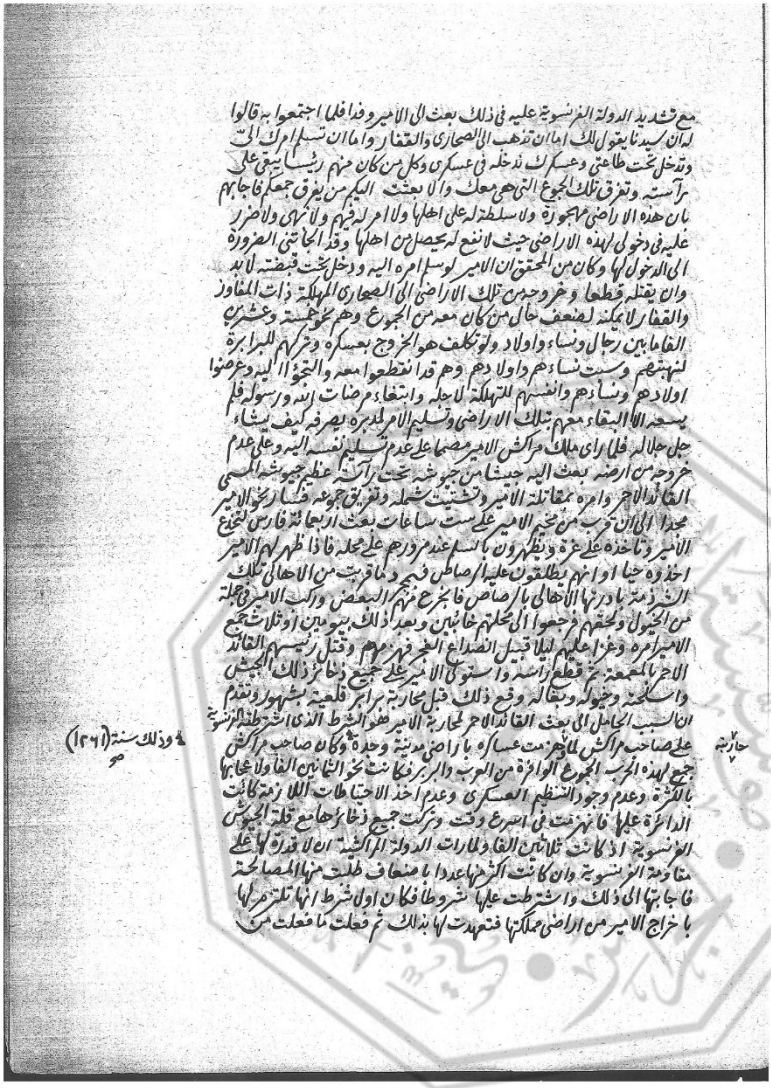

مع شدید الدولة الفرنسویة علیه فی ذلك بعث الی الامیر وفدا فلما اجتمعوا به قالوا له ان سیدنا یقول لك اما ان تذهب الی الصحاری والقفار واما ان تسلم امرك الی وتدخل تحت طاعتی وعسكرك تدخله فی عسكری وكل من كان منهم رئیسا یبقی علی رآسته وتفرق تلك الجموع التی هی معك والا بعثت الیكم من یفرق جمعكم فاجابهم بان هذه الاراضی مملوكة ولا سلطة له علی اهلها ولا امر له فیهم ولا نهی ولا اضر علیه فی دخول لهذه الاراضی حیث لا نفع له بحصول من اهلها وقد الجانبی الضرورة الی الدخول لها وكان من الحقق ان الامیر لو سلم امره الیه ودخل تحت قبضته لا بد وان یقتله قطعا وخروجهم من تلك الاراضی الی الصحاری المهلكة ذات المفاوز والقفار لا یمكنه لضعف حال من كان معه من الجموع وهم نحو خمسة وعشرین الفا ما بین رجال ونساء واولاد ولو تكلف هو الخروج بعسكره وعزهم للبرابرة لنهبتهم وسبت نساءهم واولادهم وهم قد انقطعوا معه والتجؤا الیه وعرضوا اولادهم ونساءهم وانفسهم للتهلكة لاجله وابتغاء مرضات الله ورسوله فلم یسعه الا البقاء معهم بتلك الاراضی وتسلیم الامر لمدبره یصرفه كیف یشاء جل جلاله فلما رای ملك مراكش الامیر مصمما علی عدم تسلیم نفسه الیه وعلی عدم خروجه من ارضه بعث الیه جیشا من جیوشه تحت آراسة عظیم جیوشه المسمی القائد الاحمر وامره بمقاتلة الامیر وتشتیت شمله وتفریق جموعه فسار نحو الامیر مجدا الی ان قرب من محل الامیر علی ست ساعات بعث ارجالة فارس للتجسس الامیر وتاخذه علی غرة ونظروا ان یسلم عند مرورهم علی محله فاذا ظهر لهم الامیر اخذوه حینا او انهم یطلعون علیه او صاص فیهجمون علیه فلما قربت من الاهالی تلك الزمة بادرتها الاهالی بالرصاص فانخرق منهم البعض وركب الامیر فی عجلة من الخیول ولحقهم فرجعوا الی محلهم خائبین وبعد ذلك بیومین او ثلاث جمع الامیر امره وعزائمه علیهم لیلا قبیل الصداع الفجر فهزموهم وقتل رئیسهم القائد الاحمر بالمعركة فقطع راسه واستولی الامیر علی جمیع ذخائر ذلك الجیش واسلحته وخیوله وبقاله وقع ذلك قبل محاربته برابر فلمحیته بشهور وتقدم ان السبب الحامل الی بعث القائد الاحمر لمحاربة الامیر هو الشرط الذی اشترطه الفرنسویة علی صاحب مراكش لما هزمت عساكره بارض مدینة وجدة وكان صاحب مراكش جمع لهذه الحربة الجموع الوافرة من العرب والبربر فكانت نحو الثمانین الفا ولما حاربته بالكثرة وعدم وجود التنظیم العسكری وعدم اخذ الاحتیاطات اللازمة كانت الدائرة علیها فانهزمت فی اسرع وقت وتركت جمیع ذخائرها مع قلة الجیوش الفرنسویة اذ كانت ثلاثین الفا وقارات الدولة المراكشیة ان لا قدرة لها علی مقاومة الفرنسویة وان كانت اكثر منها عددا باضعاف طلبت منها المصالحة فاجابتها الی ذلك واشترطت علیها شروطا فكان اول شرط انها تلتزم لها باخراج الامیر من اراضی مملكتها فتعهدت لها بذلك ثم فعلت ما فعلت من

حاربته

وذلك سنة (١٢٩١)

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

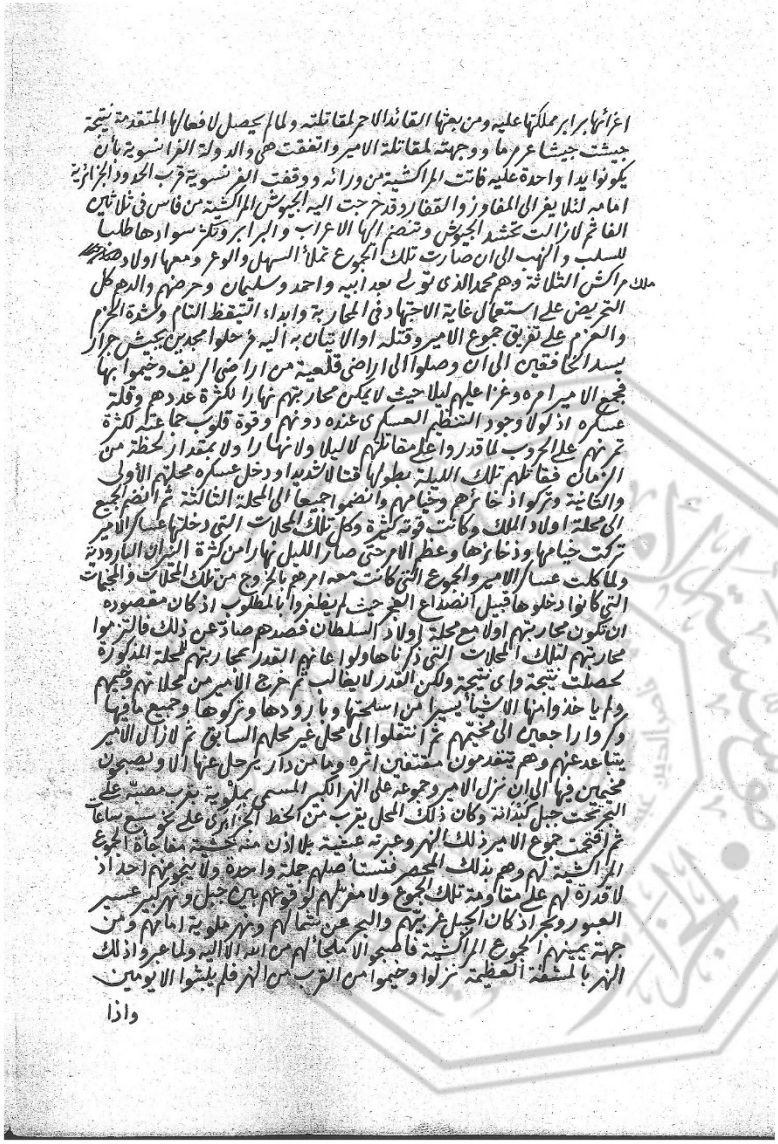

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

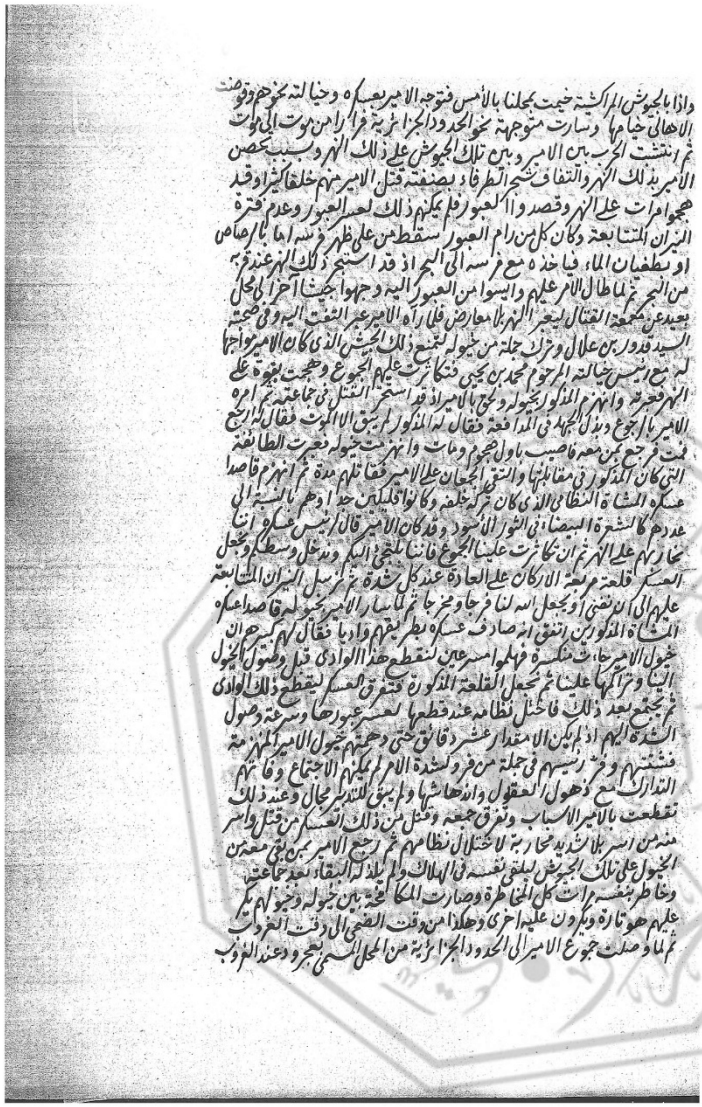

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

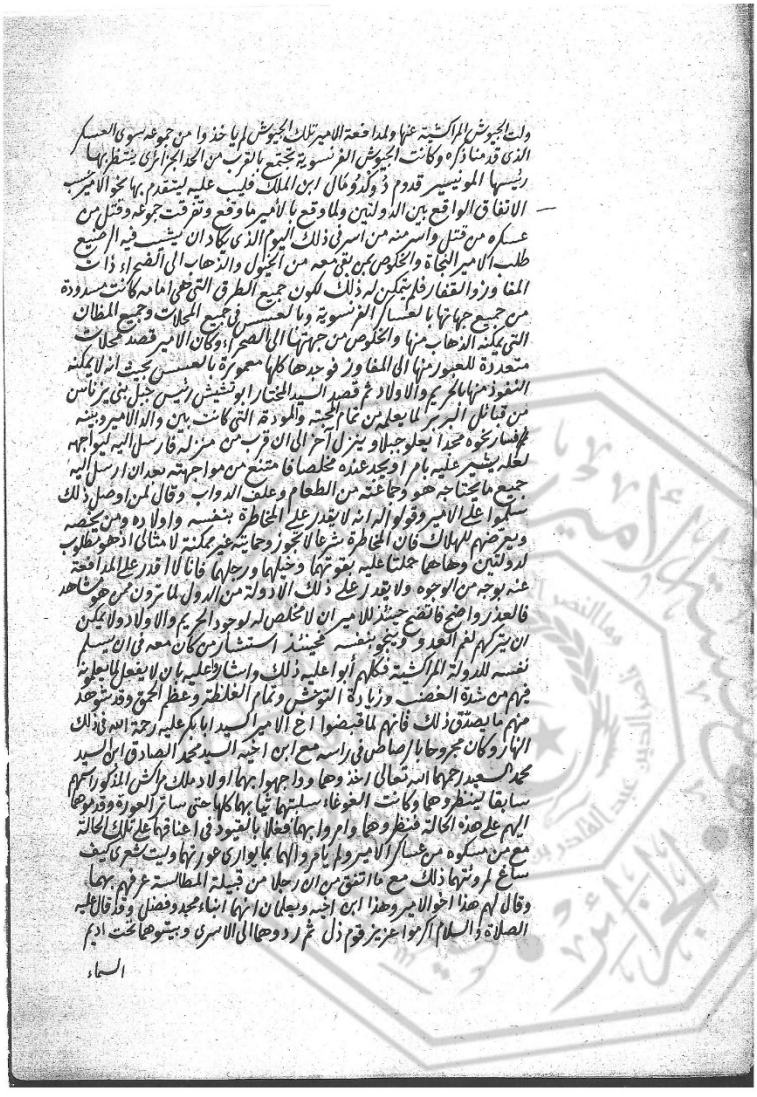

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تَسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

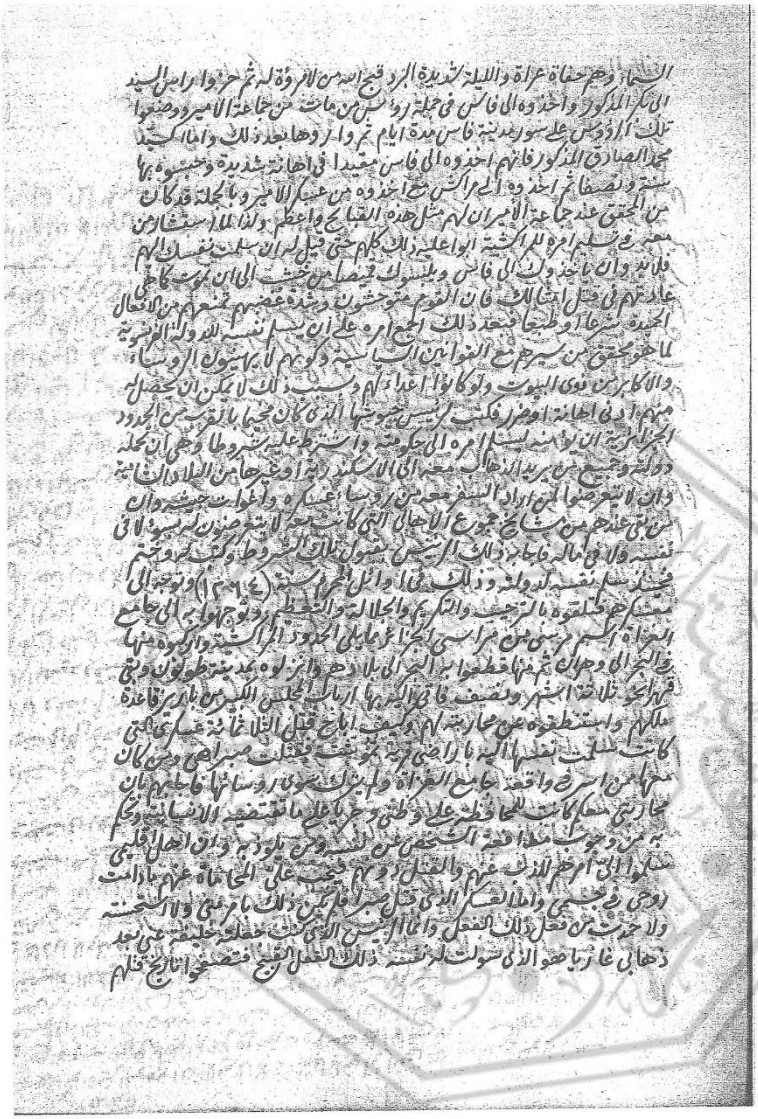

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

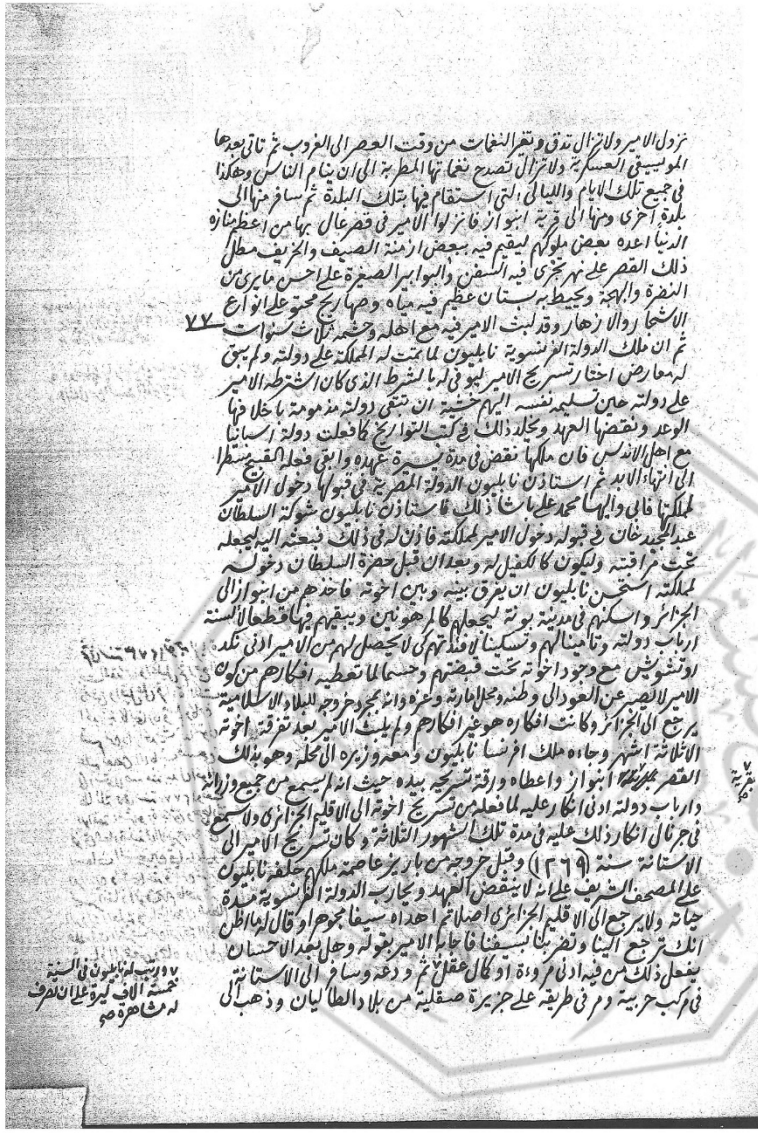

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

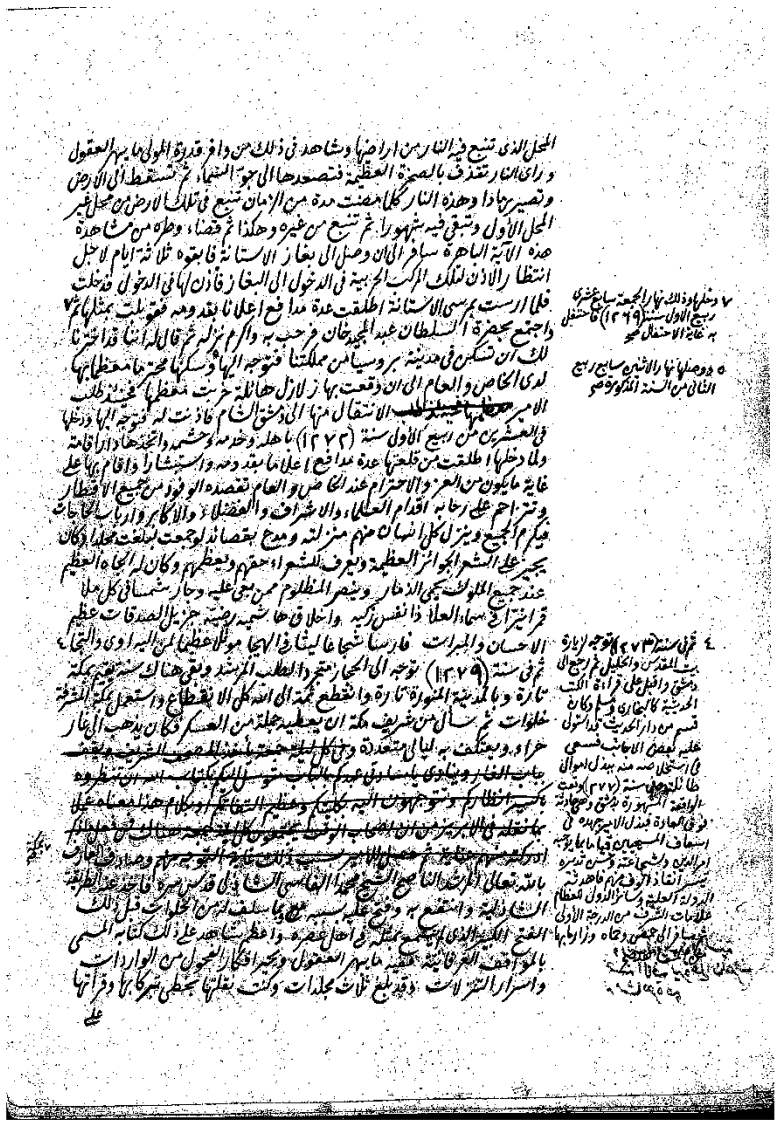

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تسرّ به النواظر التامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

على اخص اصحاب الأمير وهو شيخنا صوفي زمانه ومرشد اوانه الشيخ محمد بن محمد الخاني النقشبندي
حرس المولى وجوده وهو سمعها مع غيرها من معظم كتب الحقائق كالفتوحات ومواها
على حضرة الامير قدس سره ولما كتبت الواقعة كاذكرت اتبعت كل جزء بقصيدة فمجموع
مؤلفها والثناء عليها وها انا اثبت قصيدتي التي للجزء الثالث وهي قولي

هذا الكتاب الذي عزت نظائره ... هذا الذي ارج الارجاء عاطره
هذا الذي انسمرت فيه المعارف بالفتح المبين الذي زالت ستائره
هذا هو البحر والدر الثمين به ... لله مولي به قد جاد خاطره
السيد الفرد عبد القادر الحبي ... شمس الحقائق من طابت عناصره
هو الامير الذي شاعت وقائعه ... في الغرب مذ نفذت فيه اوامره
ونال شأنا عليا في جزائره ... فكلهم طوعه بل هم عساكره
ليث الوغى اسد الهجاء كم تركت ... اعداه جيفا صرعى بواتره
ذو الواردات من الفيض القدس كم ... يوحى اليه من العرفان باهره
كشاف مطوى اسرار النصوص بالـ ... تحقيق فيه وبالتدقيق ناشره
بحر خضم وطود شامخ حكما ... وبالفتوحات قد باحت سرائره
متى يرد منه ايضاح لغامضة ... في الحال وارده باتي يبادره
في ظاهر العلم تلقاه الامير به ... وفي الحقائق فرد العصر نادره
كهف الضيوف ووهاب الوفود للـ ... ـلهوف غوث ولكسور جابره
كنز المعارف بحر في العوارف لا ... تثنيه عن بذل رفد ما تجاذره
رفع على حيدرة في باس عشرة ... في جود حاتم قد كانت مظاهره
رب التقى والهدى والمكرمات وقو ... ن للضعيف اخي الشكوى وناصره
قد فاق في عصره من كان ذا حسب ... وفي الممالك قد سرت مآثره
بديع اداب اهيى شاعرا ... وقوت ارواحنا منه نوادره
تزوره الناس من اقصى البطاح على ... آمالها فينال القصد زائره
وهم على بابه ما بين ملتجئ ... ومستجد والكل شاكره
رحب الفناء وسهل في خليقته ... حلو الشمائل لا تخشى بوادره
وكم ترى من صدور نحو سدته ... وكم افاضل يتلوه كابره
تغص مجلسه الاعلام جاثية ... كانما راسهم يعلوه طائره
اذ رونق الملك بارق في محافله ... وفي محاضره تحلو حواضره
يفترعن كل خير دار منطقه ... وامره فيه وافيه ووافره
حوى الفضائل مع كل الفواضل في ... ملك رفيع وعز راق ناضره
لا غرو وهو من الحسنا رتبته ... ومنه تسمو الى العليا مفاخره
لكن سادة جهم فرض وقر هم ... مبغي ومبغضهم للدين خاسره

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

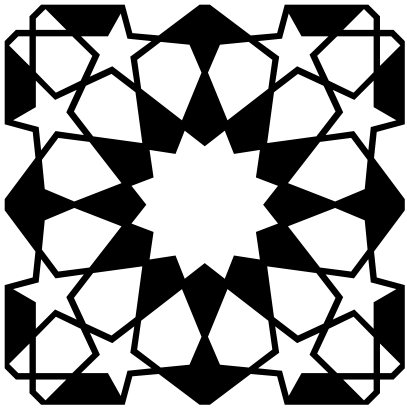

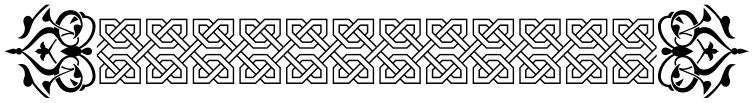

نماذج من مخطوط (نخبة ما تُسرُّ به النواظر) -الكتاب التام-

ومنه انتزع الشيخ القاسمي ما يتصل بترجمة الأمير عبد القادر

وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعي (تعطير المشام)

وهذه النسخة بخط المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني

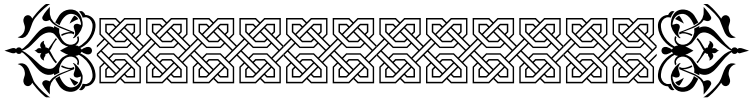

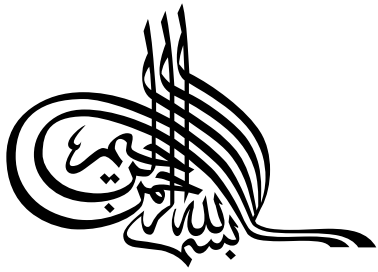
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى بعد السلام على سيدي المعظم

اردوم من سماحتكم جواب ما استشكله بعضهم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام وذلك انه كان بينه وبين ابيه عليهما السلام مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية او اكثر على ما نقلوا وكانت مدة فراقه ثماني عشرة او اربعين او ثمانين سنة فلم لم يرسل سيدنا يوسف اباه عليهما السلام في هذه المدة بكتاب او برسول مع علمه بشغف ابيه به وسهولة ذلك عليه لما ذكر من المسافة بينهما او ضحوا الجواب عن ذلك ولا يحضرني حل ذكر هذا الاشكال احد من المفسرين او المحشين وعلى كل المرام تحقيق ذلك لا زال بدركم في سماء الافادة طالعا وهاطل فرائدكم على المستفيدين هامعا في ٣ رمضان المعظم سنة ١٣٠٨

الحمد لله

الجواب عن ذلك والله اعلم هو انه لا يخفى ان الحضرة الالوهية شديدة الغيرة ولا تحب ان يلاحظ معها غيرها او يتوجه لسواها كل التوجه ومشيرات التوجه لسواها قلما بد ان تفرق بين المتوجه والمتوجه اليه امتحانا منها لهما وهذه سنتها في جميع مخلوقاتها فهي لما رات تعلق سيدنا يعقوب عليه السلام بالحضرة اليوسفية لجمالها التي البستها اياها وشدة تعلقه بها اوجبت لها ما اوجبت من تلك الفرقة حرزا منها على عادتها فلم سيدنا يوسف منها ذلك ترك البعث لوالده والاخبار عنه مع قرب المسافة وكونه كان عزيز مصر وتحكم امر الاخبار به الى نفسه في الوقت الذي يريده فصبر تلك المدة وكل ذلك لحكم لا يعلمها الا الله تعالى وهذا غاية ما حضرني في الوقت والسلام

احمد بن محي الدين الحسني الجزائري

سؤال من الشيخ جمال الدين القاسمي
وجوابه من الشيخ أحمد الحسني الجزائري

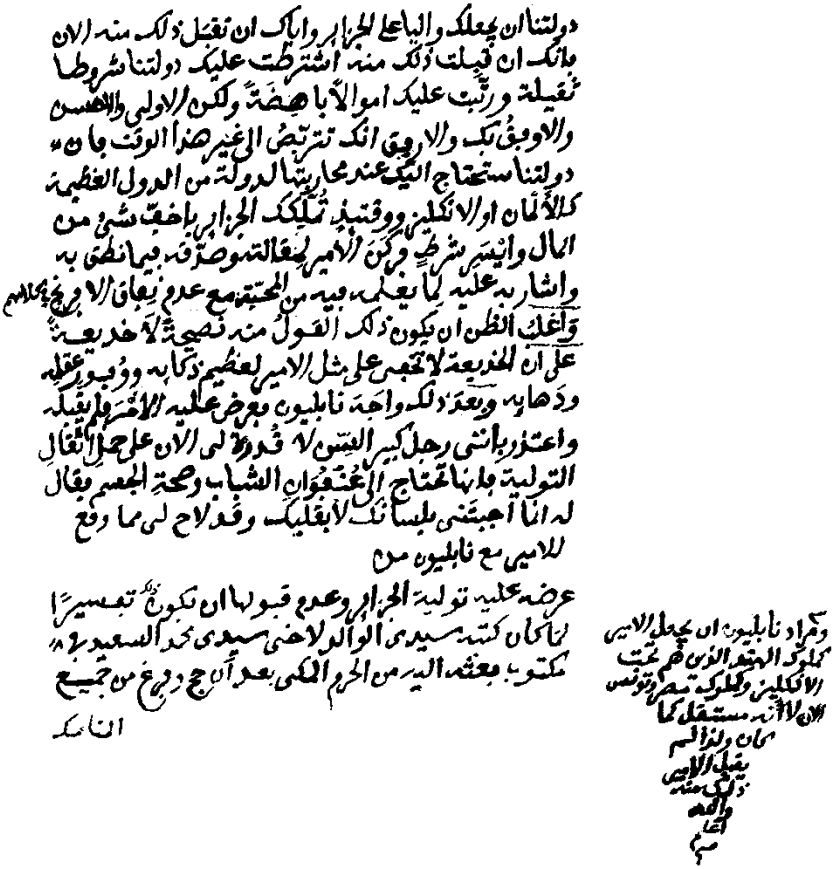

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخطّ المؤلّف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

ماقولكم في رجل طلق زوجته اولا طلقه
واحدة ثم طلقها ثلاثا في كلمة واحدة ثانيا
بان قال لها طلقتك ثلاثا فهل يجوز له ان
يردها الى عصمته ام لا الجواب

نعم يجوز له ان يردها الى عصمته على ما صرح
به بعض علمائنا المالكية وغيرهم من السلف
قال ابن سلمون في نوازله الطلاق اذا اوقعه
ثلاثا في كلمة واحدة انما تلزمه طلقه واحدة
لان الله تعالى انما ذكر طلاق الثلاث مفردا فلا
يصح ايقاعه الا كذلك وهو قول علي وابن عباس
رضي الله عنهما وجماعة من الصدر الاول و
قال به اهل الظاهر وطائفة من العلماء واخذ
به جماعة من شيوخ قرطبة ابن زياد وابن
عبد السلام واصبغ وابن حبيب وغيرهم
بالاندلس فعلى قول هؤلاء السادات الاجلاء
طلاق الثلاث دفعة واحدة في كلمة
واحدة يعد طلقة واحد فصارت طلقتين
مع التي قبلها فترد له بعقد جديد اهـ

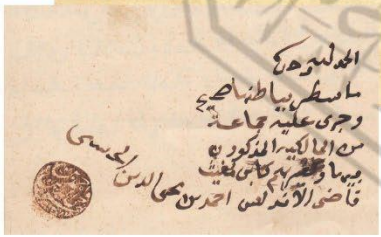
الحمد لله وحده
ما سطر بياضه صحيح
وجرى عليه جماعة
من المالكية المذكورين
فيه وغيرهم كما بين
قاضي الاندلس احمد بن محمد الدين الحسني

نموذج من فتوى الشيخ المفتي
أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري

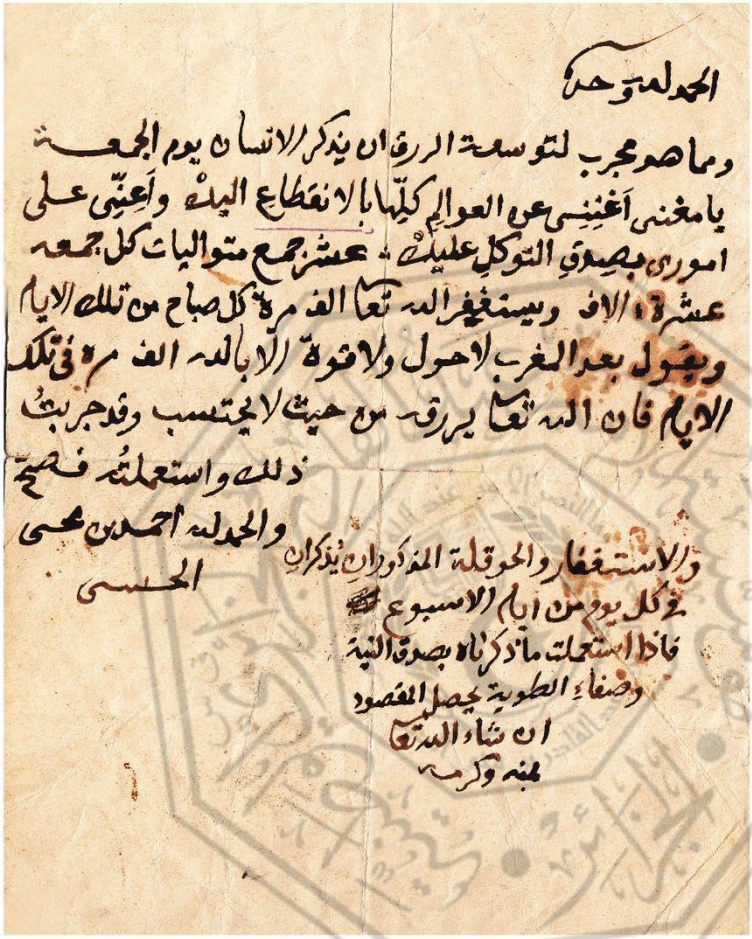
الحمد لله وحده
وما صح مجرب لتوسعة الرزق ان يذكر الانسان يوم الجمعة
يا مغني اغنني عن العوالم كلها بالانقطاع اليك واعني على
اموري بصدق التوكل عليك . عشر جمع متواليات كل جمعة
عشرة الاف ويستغفر الله تعالى الف مرة كل صباح من تلك الايام
ويقول بعد الغرب لا حول ولا قوة الا بالله الف مرة في تلك
الايام فان الله تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب وقد جربت
ذلك واستعملته فصح
والحمد لله احمد بن محي
الحسني

والاستغفار والحوقلة المذكوران يذكران
في كل يوم من ايام الاسبوع
فاذا استعملت ما ذكرناه بصدق النية
وصفاء الطوية يحصل المقصود
ان شاء الله تعالى
بمنه وكرمه

نموذج من أذكار الشيخ
أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري

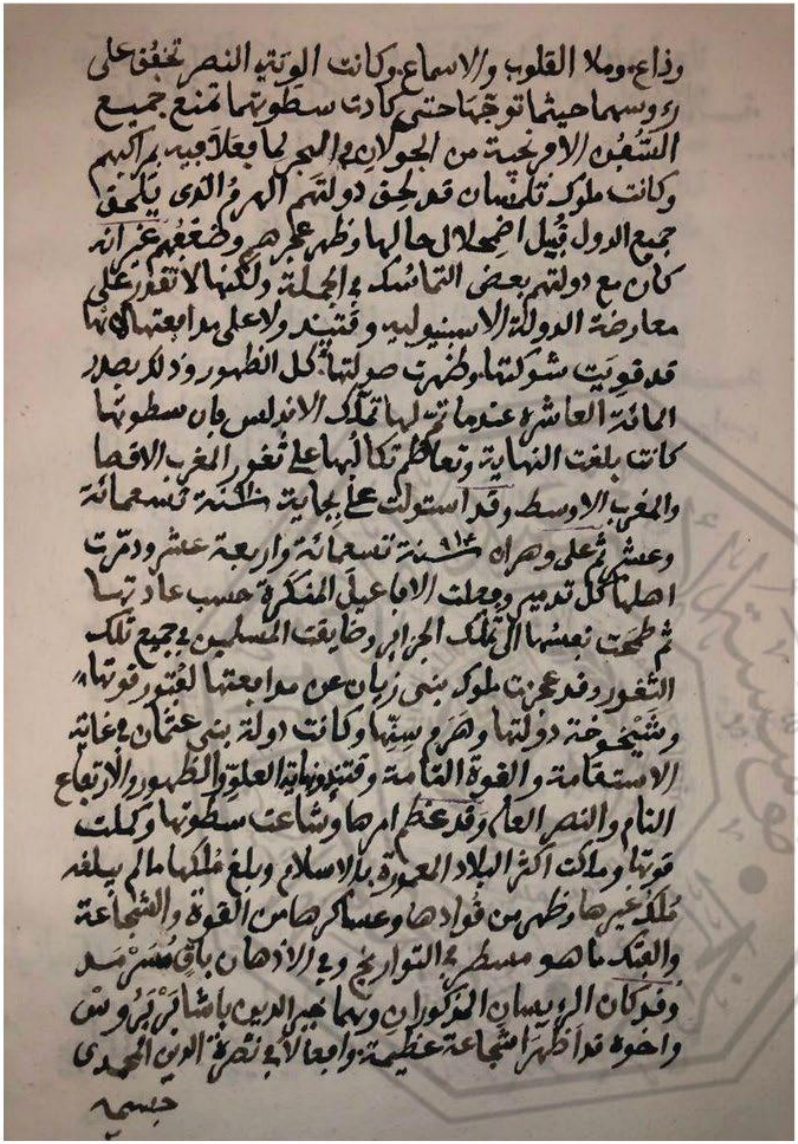

وذاع وملا القلوب والاسماع وكانت الوتيرة النصر تخفق على
رءوسهما حيثما توجها حتى كادت سطوتهما تمنع جميع
الشعوب الاوربية من الجولان في البحر لما فعلا فيه بمراكبهم
وكانت ملوك تلمسان قد لحق دولتهم الهرم الذي يلحق
جميع الدول قبيل اضمحلال حالها وظهر عجزهم وضعفهم غير انه
كان مع دولتهم بعض التماسك بالجملة ولكنها لا تقدر على
معارضة الدولة الاسبنيولية وقتئذ ولا على مدافعتها لانها
قد قويت شوكتها وظهرت صولتها كل الظهور وذلك بصدر
المائة العاشرة عندما تم لها تملك الاندلس فان سطوتها
كانت بلغت النهاية وتعاظم تكالبها على ثغور المغرب الاقصا
والمغرب الاوسط وقد استولت على بجاية سنة تسعمائة
وعشر ثم على وهران سنة ٩١٤ تسعمائة واربعة عشر ودمرت
اهلها كل تدمير وجعلت الاقاعيل المنكرة حسب عادتها
ثم طمحت نفسها الى تملك الجزاير وضايقت المسلمين في جميع تلك
الثغور وقد عجزت ملوك بني زيان عن مدافعتها لغتور قوتها
وشيخوخة دولتها وصرم سنها وكانت دولة بني عثمان في غاية
الاستقامة والقوة التامة وقتئذ وفي نهاية العلو والظهور والارتفاع
التام والنصر العام وقد عظم امرها وشاعت سطوتها وكملت
قوتها وملكت اكثر البلاد المعمورة بالاسلام وبلغ ملكها ما لم يبلغه
ملك غيرها وظهر من قوادها وعساكرها من القوة والشجاعة
والبئك ما هو مسطر في التواريخ وفي الاذهان باق مستمر
وقد كان الرئيسان المذكوران وهما خير الدين باشا بربروس
واخوه قد اظهرا شجاعة عظيمة وافعالا في نصرة الدين المحمدي
جسيمة

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرّ به النواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ
ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"،
وهذه النسخة بخط المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

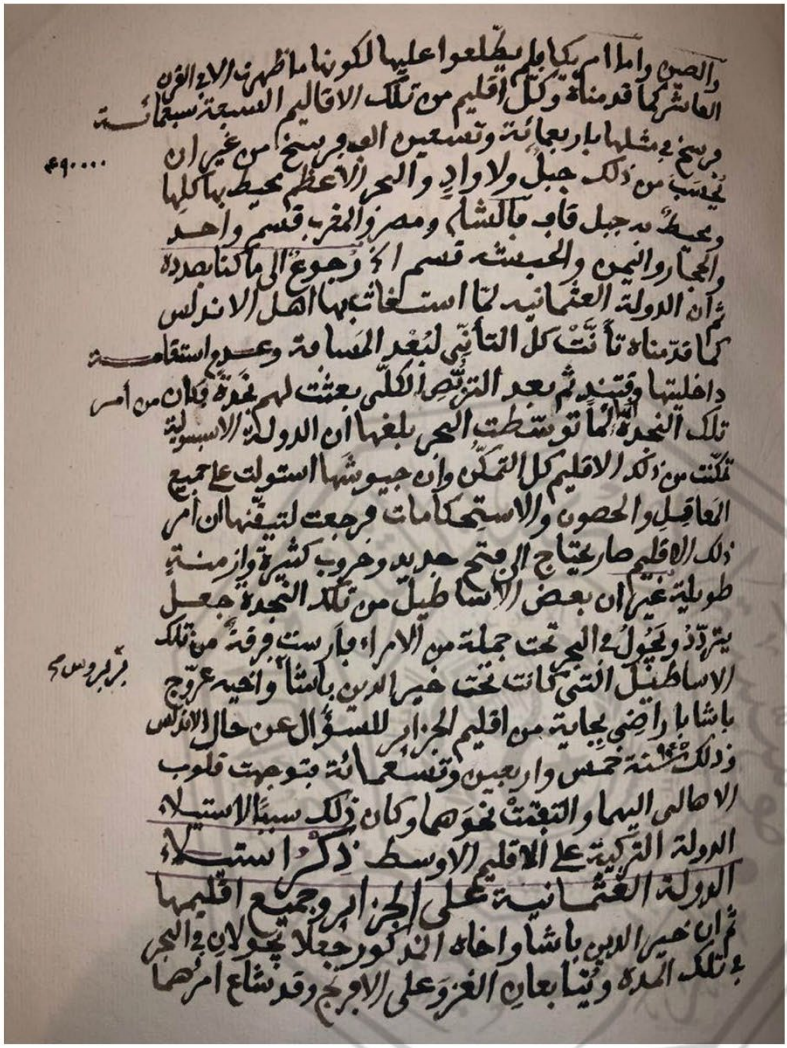

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخط المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

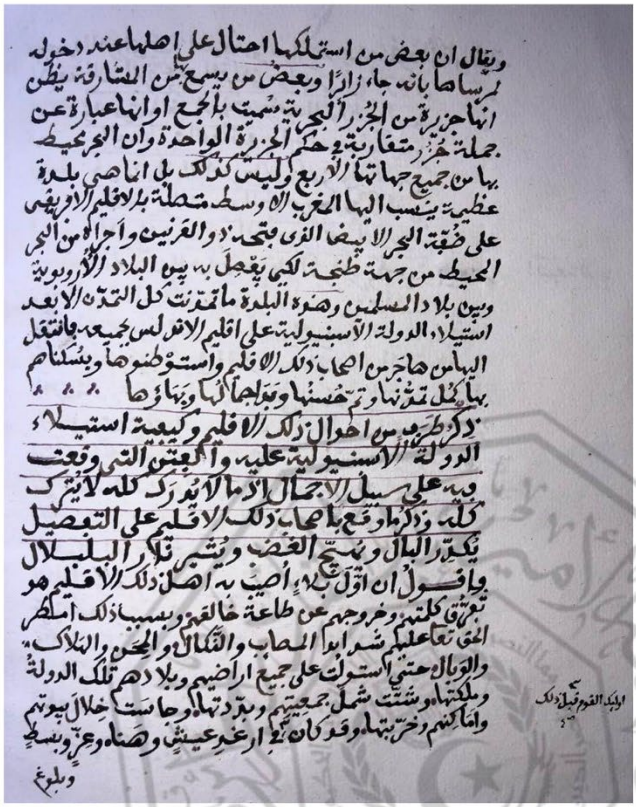

ويقال أن بعض من استملكها احتال على أهلها عند دخوله لرسماها بأنه جاء زائراً، وبعضُ من يسمع بها من المشارقة يظن أنها جزيرة من الجزر البحرية، سميت بالجمع، أو أنها عبارة عن جملة جُزر متقاربة في حكم الجزيرة الواحدة، وأن البحر محيط بها من جميع جهاتها الأربع. وليس كذلك، بل إنما هي بلدة عظيمة ينسب إليها المغرب الأوسط متصلة بالإقليم الإفريقي على ضفة البحر الأبيض الذي فتحه ذو القرنين، وأجراه من البحر المحيط من جهة طنجة، لكي يفصل به بين البلاد الأوروبوية وبين بلاد المسلمين. وهذه البلدة ما تمدنت كل التمدن إلا بعد استيلاء الدولة الأسبنيولية على إقليم الأندلس بجمعيه، فانتقل إليها من هاجر من أصحاب ذلك الإقليم واستوطنوها، وبسكناهم بها كمل تمدنها، وتم حسنها، وبدا جمالها وبهاؤها.

ذكر طرف من أحوال ذلك الإقليم وكيفية استيلاء الدولة الإسبنيولية عليه، والفتن التي وقعت فيه على سبيل الإجمال، إذ مالا يدرك كله لا يترك كله، وذكر ما وقع بأصحاب ذلك الإقليم على التفصيل، يكدر البال، ويهيج الغضب، ويثير نار [البلابل].

وأقول: إن أول بلاء أصيب به أهل ذلك الإقليم هو تفرق كلمتهم، وخروجهم عن طاعة خالقهم، وبسبب ذلك أمطر الحق تعالى عليهم شدائد المصائب والنكال والمحن والهلاك والوبال، حتى استولت على جميع أراضيهم وبلادهم تلك الدولة، وملكتها وشتت شمل جمعيتهم وبددتها، وجاست خلال بيوتهم وأماكنهم وخربتها، وقد كان في أرغد عيش وهناء، وعز وبسط .....

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرّ به النَّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخطّ المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

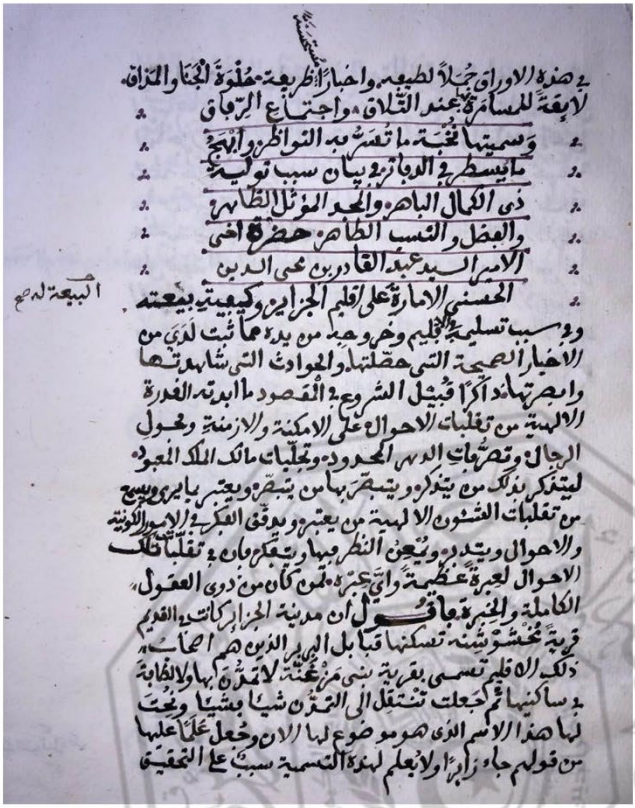

في هذه الأوراق جملاً لطيفة وأخباراً مستحسنة ظريفة حلوة الجنا والمذاق لانقة للمسامرة عند التلاق، واجتماع الرفاق .

وسميتها" نخبة ما تسر به النواظر وأبهج ما يسطر في الدفاتر" في بيان سبب تولية ذي الكمال الباهر، والمجد المؤثل الظاهر، والفضل والنسب الطاهر، حضرة أخي الأمير السيد عبد القادر بن محي الدين الحسني الإمارة على إقليم الجزائر، وكيفية بيعته، وفي سبب تسليمه الإقليم، وخروجه من يده مما ثبت لدي من الأخبار الصحيحة التي حصّلتها، والحوادث التي شاهدتها وأبصرتها، ذاكراً قبيل الشروع بالمقصود: ما أبدته القدرة الالهية من تقلبات الأحوال على الأمكنة والأزمنة، ومجول الرجال وتصرفات الدهر المحدود، وتجليات مالك الملك المعبود. ليتذكر بذلك من يتذكره ويتبصر بها من يتبصره ويعتبر بما يرى ويسمع من تقلبات الشئون الالهية من يعتبره ويدقق الفكر في الأمور الكونية والأحوال ويتدبر ويمعن النظر فيها ويتفكر بأن في تقلبات تلك الأحوال لعبرة عظيمة وأي عبرة تمن كان من ذوي العقول الكاملة والخبرة.

فأقول: إن مدينة الجزائر كانت في القديم قرية مخشوشنة تسكنها قبائل البربر الذين هم أصحاب ذلك الإقليم، تسمى بقرية بني مَزْغَنَّة، لا تَمدُن بها، ولا لطافة بساكنيها، ثم جعلت تنتقل إلى التمدن شيئاً فشيئاً، ونُحتَ لها هذا الاسم الذي هو موضوع لها الآن، وجُعل علماً عليها من قولهم: جاء زائراً، ولا يُعلم لهذه التسمية سبب على التحقيق .

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرّ به النّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام" ، وهذه النسخة بخطّ المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني .

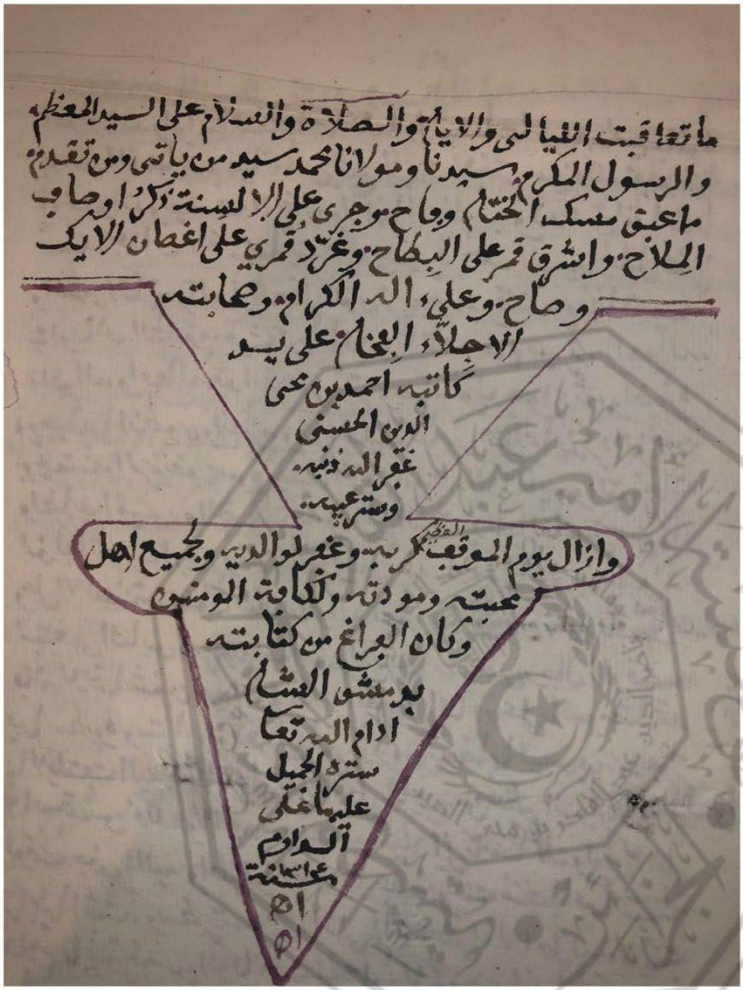
ما تعاقبت الليالي والايام والصلاة والسلام على السيد المعظم
والرسول المكرم سيدنا ومولانا محمد سيد من يأتي ومن تقدم
ما عبق مسك الختام وفاح وجرى على الالسنة ذكره اوصاف
الملاح واشرق قمر على البطاح وغرد قمري على اغصان الايك
وصاح وعلى آله الكرام وصحابته
الاجلاء البغام على يد
كاتبه احمد بن محي
الدين الحسني
غفر الله ذنبه
وستر عيبه
وازال يوم الموقف الكريه وغفر لوالديه ولجميع اهل
محبته ومودته ولكافة المومنين
وكان الفراغ من كتابته
بدمشق الشام
ادام الله تعالى
ستره الجميل
عليها على
الدوام
عام سنة
١٣١٤
١٨٩٦

خاتمة المخطوط التام للعلامة الشيخ أحمد بن محيي الدين
((نخبة ما تسر به النواظر))
ويظهر فيها تاريخ الفراغ من كتابته عام 1314 هـ
الموافق لـ 1896 م

دار الأمير في أشرفية صحنايا - ريف دمشق

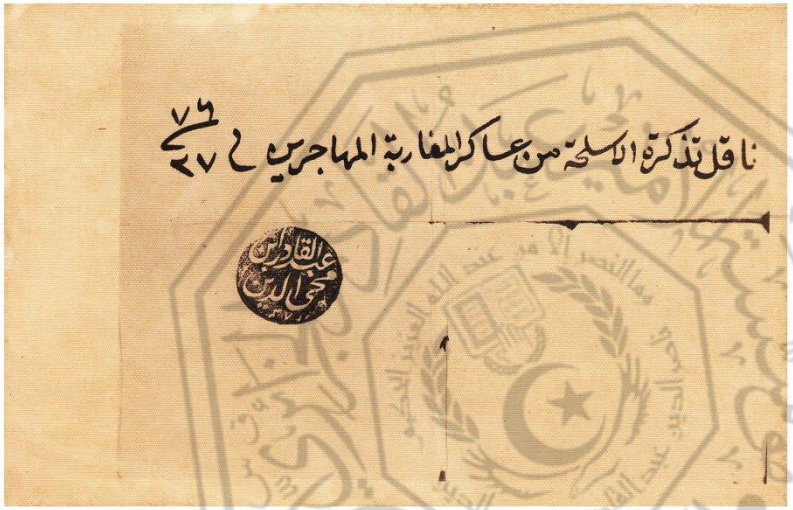

بطاقة حمل سلاح جرى تداولها أيام فتنة 1860 م
بختم الأمير عبد القادر الجزائري

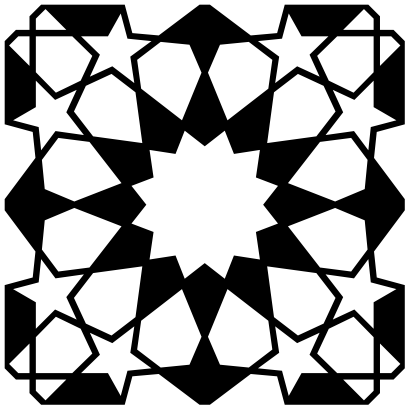

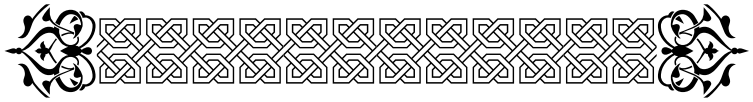

الفهرس

العنوان	الصفحة
الإهداء	3
مشجر قبيلة العارف بالله عبد القادر الإدريسي الحسني	6
كلمة شكر	7
تقديم الكتاب	9
منهج العلامة المفتي المالكي الأمير أحمد فيما كتب	15
تقريظ الكتاب للشيخ جمال الدين القاسمي	21
استيلاء العثمانيين على الجزائر وتونس	25
هجوم الإنكليز على مدينة الجزائر	29
هجوم إسبانيا على الجزائر	30
الخلاف مع فرنسا، ووالي الجزائر حسين باشا يضرب قنصل فرنسا بمروحة	31
فرنسا تطلب من محمد علي والي مصر الوساطة مع الجزائر	33
تسلُّط الفرنسيين على الجزائر	35
الاستيلاء على وهران وغيرها	43

العنوان	الصفحة
رغبة الأهالي في تولية الأمير عبد القادر	47
استشهاد ابن أخي الأمير السيد أحمد في غزوة وهران	49
مبايعة الأمير	52
تنظيم العساكر وشراء الأسلحة	56
إنشاء مصنع للأسلحة	57
مكاتبة ملك مراكش	58
الاحتفال بالمولد الشريف وتجارب على القتال	59
مدة تولية الأمير	61
الصلح بين الأمير وفرنسا ثم نقضه	69
حرب ثنية مزاية	75
فرنسة تنقض المعاهدة	80
استيلاء الفرنسيين على تلمسان	81
استشهاد السيد محمد بن عَّلال	82
سلطان مراكش يأمر بإخراج الأمير	88
الأمير يطلب فتاوى من علماء مصر بشأن سلطان مراكش	89
رسالة من ملك مراكش إلى الأمير بالتسليم	96
الأمير يسلم نفسه لفرنسة	109

العنوان	الصفحة
نقله من مدينة طولون إلى مدينة بو	112
نقله إلى إمبواز	113
قصيدة للأمير في محاسن البادية	115
السلطان العثماني عبد المجيد يقبل دخول الأمير لمملكته	122
مغادرة الأمير باريز إلى الآستانة	124
سكنه في بروسه	125
سكنه دمشق	126
زيارته للقدس والخليل	127
استخلاصه دار الحديث الأشرفية من المغتصبين	127
حادثة سنة 1860م والمعروفة بطوشة النصارى	128
سفره إلى حمص وحماه وحجه	128
اجتماعه بالشيخ محمد الفاسي وسلوكه عليه	129
دعوته لزيارة نابليون بباريز	130
حضوره افتتاح قناة السويس	131
تصحيح كتاب الفتوحات المكية اعتماداً على نسخ المؤلف بقونية	132
دعوته لزيارة أمريكا	133
فضائله	133

العنوان	الصفحة
وفاته	135
ولادته ونشأته	136
والد الأمير	138
صور من مخطوط الشيخ جمال الدين القاسمي (تعطير المشام)	141
صور من مخطوط الشيخ أحمد (نُخبة ما تُسر به النواظر)	177
الفهرس	191